الْحَرَائِقُ فِي حَدائِقَ التُفاح

رواية

غالية يونس الذرعاني

الْحَرَائِقُ فِي حَدائِقَ التُّفاح

رواية

دار البيـــــان

للنشر والتوزيع والإعلان

الحرائق في حدائق التفاح

غالية يونس الذرعاني

- الطبعة الأولى: 2019 م

- رقم الإيداع المحلي : 267 / 2018

دار الكتب الوطنية بنغازي

- الرقم الدولي الموحد:

ردمك ISBN 978-9959-37-057-0

الوكالة الليبية للترقيم الدولي الموحد للكتاب بنغازي – ليبيا

تصميم الغلاف

أمير المنفلوطي

جميع حقوق الطبع والاقتباس والترجمة محفوظة للناشر:

دار البيان للنشر والتوزيع والإعلان

بنغـازي - ليبيا

هاتف 061.2232104 - محمول 091.2090770

إهـــداء

إلى كُلّ من يؤمن...

بأنَّ أول لبنةٌ في الغد هي...

بذرة حبٍّ في قلوبٍ خصبة ..

استهلال

تظلّ الأشجار تدفع النّماء والحياة في خلاياها إلى أغصانها وأوراقها وبراعمها ما دامت تربتها خصبة وغنية وندية بالحياة، أما إذا ما تسربت السُّموم إلى جوفها، من الجُذور أو من الهواء الذي تتنفسه، فسيتسرب السمُّ إلى أغصانها أيضاً، وسيصيبها اليُباس فتموت البراعم، وتسقط الأوراق، وشيئاً فشيئاً، تصبح الشجرة الكبيرة - في النِّهاية- مجرد أعواد خاوية يذكي بها العابرون نيرانهم الخاصّة.

(1)

" ما يزال عدد ضحايا التفجير الإرهابي الذي استهدف بوابة تفتيش تابعة للجيش- قبل أيام- في ازدياد، فقد ارتفع عدد الشهداء الذين صعدت أرواحهم إلى بارئها بعد معاناة رهيبة مع الحروق والجَراح، ارتفع إلى خمسة وأربعون شهيداً، بينهم عشرون مدنياً، و....."

امتزجت في قلبها مشاعر مختلطة، من القهر والغضب والحزن والحماس، بينما كانت تنصتُ من حجرة مكتبها الصّغيرة إلى صوت المذيع وهو يعيد قراءة الخبر بنبرة آلية خالية من أي احساس.

عقدت حاجبيها وتنهدتْ بحرقة، وشعرت برغبة صادقة في البكاء.

كان باب المكتب الموارب يؤدي مباشرة إلى الصالة التي تحوي التلفزيون، فجأة وكعادته غيّر زوجها القناة ليتابع فيلم " جميلة والوحش" المعروض على قناة للأطفال.

- هذا الأبله، يُصرّ أن يكون تافهاً.

كانت ترغب في الاستماع إلى مزيد من التعليقات والتعقيبات وردود الأفعال حول الحدث لتذكي به نار الغضب والثورة داخلها، لكن

تحكم زوجها في جهاز التحكم، وتغييره المستمر للقنوات بحثاً عن قنوات الأطفال، جعل أمواج الغضب والثورة تلك تغيّر اتجاهها نحوه، وتكاد تجعلها تهبّ من موقعها لتضرب رأسه بأي شيء يكون في متناول يدها، غير أن دخوله المفاجئ بسفرة القهوة مع كوب ماء بارد جعلها تسحب كلَّ قراراتها المفاجئة والطارئة، وتخبئها في قرار قلبها.

- تفضلي القهوة.

قال بنبرة مرحة، وهو يناولها فنجاناً تتصاعد رائحة محتواه في المكان، ثم وضع السفرة على المكتب، ونظر إلى عينيها نظرة مباشرة لم تستطع فهم معناها، نظرة لطالما كانت تحيرها وتربكها وتثير غضبها في الوقت ذاته، نظرة هي كانت وما زالت ذات النظرة التي دأب على بعثرة كيانها بها خلال سنوات زواجهما التسعة، زواجها الذي تعتبر أنها قد جُرّتْ إليه تحت وطأة العنوسة والخوف من الآتي، منذ اليوم الأول الذي التقيا فيه عند بوابة مركز العلاج الطبيعي وإعادة التأهيل، حين كانت تدفع كرسياً متحركاً بأبيها، وهو كذلك كان يدفع كرسياً متحركاً بأبيه، هي ذات النظرة يوم سألها الزواج به، وهي ذاتها يوم توفي أبيها، وهي ذاتها أيام كانت تخرج من بوابات عيادات النساء الخاصة والعامة، مبللة باليأس، ومكوية بتقارير ما تزال تعتبرها ملفقة وكاذبة، وهي ذاتها يوم قررت أن ترشح نفسها للانتخابات البرلمانية.

في كل م ـرّة، ينظر إليها بتلك النظرة كانت تجاهد لتبحث لها عن معنى في قواميس روحها التي لم تدرس سوى في مدارس الاحباط واليأس والعجز، فكانت تلك النظرة ترتدي في عينيها ثوب شفقة وقحة، أو سخرية صفيق ولا مكان لأي معناً آخر.

كان كلما حاول أن يفسر تلك النظرة بكلام، كانت تصمّ أذنيها عنه، ولا تسمح لكلماته المُفسِرة أن تعبث بصمود قلبها الواثق، لن تسمح لحبَ خَرِف، خلَّخل ذاكرته الزهايمر أن يزلزل ثبات كيانها.

في قرارة روحها صوت يصرخ محذراً في كلِّ وقت:

- سيغادر هذا الر جل يوماً حياتكِ، يوماً ما سيرحل،...تماماً كما فعل الآخرون.

هي تنتظر هذا اليوم بكامل انهزامها واستسلامها وجُبنها، ذاك اليوم الذي تؤمن بكامل قواها الروحية بأنه قدرها، وأنه حظُّها مذ وعيت على الدَّنيا.

- اخفض صوت التلفزيون.

قالت وهي تتناول من يده فنجان القهوة، وترشف منه أول رشفة، متظاهرة بانشغالها في فحص ودراسة بعض الأوراق المتناثرة على المكتب، ثم أضافت بذات الأسلوب:

- وأغلق النافذة.

لم تزعجه لهجتها الجّافة، وعبارتها الآمرة المتعالية القاحلة من أي احترام، كعادتها مذ زُفتْ إليه، حتّى بعد أن استفحل جفاف تلك اللهجة بعد أن فازت بالانتخابات البرلمانية، وحصلت على مقعد في أول وأهم مؤسسة تشريعية في البلاد، لم ينزعج، كما لم يزعجه قبلاً بأنه قد تحول في حياتها إلى مجرد خادم، يرتب لها شقتها ويعدَّ لها وجباتها وقهوتها التي تحبّها مُرّة، أو إلى مجرد كلب حراسة - في نظرها- يجلس في كرسي سيارتها الفارهة الأمامي ويراقبها وهي تقود بخيلاء من صار يحكم العالم.

أومأ برأسه موافقاً، خطا نحو النافذة المفتوحة، تردد قليلاً عندها، ثم رسم ابتسامة على وجهه، والتفت إليها قائلاً بنبرة مرحة:

- المساء منعش، هل نخرج للجلوس في الحديقة قليلاً؟.

لم يتلق إجابة على طلبه، ظلَّتْ مُنكبة على أوراقها، طال وقوفه دون أن تنظر إليه، فأغلق النافذة بهدوء،وخرج وأغلق الباب خلفه بذات الهدوء والحذر ، بينما ظلتَّ ابتسامة فرح غامض تتراقص على شفتيه حتّى اختفى.

ضغطت على شفتيها تعبيراً عن القرف عندما لمحت طيف ابتسامته، كانت تقرأ فيها خبثاً ودهاءَ، وليس كما يحاول هو بأن

يبديها ابتسامة سذاجة وبلاهة وربما صدقٌ وصفاء، لم تكن ابتسامته تلك سوى سهامٌ مسمومة تظلُّ تصفر بالماضي والحاضر في خواء روحها وتستقر ثابتة في قلبها.

بصقت رشفة القهوة المُرّة التي احتفظت بها قليلاً في فمها في سلة المهملات القريبة، ثم دلقت بقية الفنجان فوقها، وتركت المرار يعصر روحها.

هدأ صوت التلفزيون الذي كان يصدح في أرجاء الفيلا الصّغيرة بأغنية الفيلم المُعرّبة: " أنا مش فارس ولا فتى أحلام".

خمّنتْ بأنه قد استعمل – كالعادة- سماعات الأذن لمتابعة الفيلم، فهو لا يمكن أن يضحي بإيقاف الفيلم، هي تعرف جيداً بأنه قد أدمن هذه النوعية من الأفلام إلى حدِّ القرف، إدمانه لكل قنوات الأطفال سواء تلك الخاصة بالأفلام، أم بالأغاني، أم بالبرامج المنوعة، تماماً كما أدمن صحبة الأطفال في الروضة الصغيرة التي أسسها باسمه، وصار يقضي أغلب يومه هناك، وفي الجُمع والعطلات ظلَّ يُلازم جهاز التلفزيون.

نظرت إلى الأوراق المُبعثرة أمامها، وضعت دائرة على بعض الأسطر، ثم قرأت بصوت مسموع لتجبر نفسها على التركيز:

- مادة 25: يعاقب بالحبس مدة لا تقل عن ثلاث سنوات، ولا تزيد عن خمس وعشرين عاماً كل من يساعد إرهابياً، أو يساهم في إعداده وتدريبه وتمويله.

كانت تطرق في ذات الوقت- بسنِّ قلم حبرٍ جاف -على المكتب بعصبية، ما تزال كلمات الأغنية عالقة في أذنيها، وابتسامة زوجها الغامضة تتراقص حولها، وعمرٌ كامل من الألم يتأجج في أعماقها مهدداً بتسونامي يدمر كل شواطئ الأمان.

زمّتْ شفتيها وهزّتْ رأسها مستنكرة، يمكن أن تكون خمسة وعشرين عاماً منصفة كحدٍّ أقصى، إذ أنها في حكم المؤبد، لكن ثلاثة أعوام كحدٍّ أدني غير كافية في نظرها مهما كانت بساطة وعفوية المساهمة أو المساعدة في إعداد الإرهابي.

- منذ أيام قتل أحدهم خمس وأربعين نفساً، لابد أن يكون العقاب صارماً على كل من يساعد الارهاب أيضاً، وإلا ستُصبح البلاد فوضى.

اتخذت قرارها بسرعة، صنعت منه قمقماً وحبست به كل عفاريت جنونها:

- في جلسة الغد سوف أصوَت لهذا القانون، ولهذه المادة بالذات، بل سأحرِض جميع الأعضاء الآخرين على الموافقة بالإجماع، وسأعمل على زيادة مدَّة العقاب إلى أقصى حدٍّ.

رمتْ القلم من يدها، تدحرج قليلاً فوق الأوراق قبل أن يسقط على السجاد الذي يُغطي الأرضية تحت المكتب.

لملمت أوراقها بسرعة، فتحت حقيبة جلدية كبيرة كانت مُسندة على جانب المكتب، وحين أرادت وضع الأوراق داخلها، لمحت ظرفاً صغيراً أصفر، تذكرت بأن الرائد نجيب قد ناولها إياه خلال لقائها به يوم أمس، تذكرت نبرة صوته الحزينة وهو يقول:

- آنا آسف.

وقتها، حارت عن الشيء الذي جعله يتأسف، وما الذي يحتويه ذاك الظرف، لكن تراكم الأعمال، وسرعة انعقاد الجلسات وتتابعها أنساها إياه.

مدَّت يدها إلى الظرف، قلبته بين يديها، قرأت ما كتبه الرائد نجيب بخطٍّ يده:

" عزيزتي...يجب أنْ تسمعي تسجيل الاعترافات الذي على القرص المُدمج إلى آخر كلمة،.. ارجوكِ افعلي.. عسى أن يُغير نظرتكِ للحياة،

وطريقة حياتكِ فيها،....وأعدكِ: لن يعرف أحد... لن يعرف أحد..... محبتي."

أحسّت برجفة تسري في أوصالها، قرّبتْ جهاز الحاسوب الخاص بها، فتحته، ثمّ وضعت القرص المدمج داخله، بعد أن أوصلت سماعات الأذن بالحاسوب، ووضعتها في أذنيها، ثم ضغطت زرّ التشغيل.

صوتان نقيضان داخل التسجيل، صوت رجل ناضج، جهوري وواثق، هو صوت الرائد نجيب،قال عبارة واحدة:

- تحدث براحتكَ يا بُني.

عبارة انطلق بعدها صوت شاب بدا مرهقاً ومتعباً، متقطعاً تتخلله أنفاس لاهثة، وتنهدات عميقة، وكثيراً ما كان يصمت لوقت طويل.

(2)

لأني الأصغر فقد جعلوني آخر من يقفز إلى القارب القديم الصدئ الذي كان ينتظرنا على الشاطئ.

تحسست حواف القارب لأتشبث بها، فجرح بعض الصداء بعض أصابعي، جفلتُ من الوخز الذي ضغط على أعصابي، غير أنني عدتُ وتشبثتُ بالحافة بقوة حالما انطلق القارب.

القارب الذي يلتصق بمؤخرته محركٌ صغير صدئ كان يُصدر- بين الفينة والأخرى - حشرجة احتضار أثناء ابتعاده عن الشاطئ، صوته البائس المهدِّدِ بالتوقف في أية لحظة كان يثير غضب صاحبه الصيّاد، ثم يأسه حين توقف تماماً وسط الماء، فجلس إلى جواره متوشحاً بالصمت، كـ ثكلى ترتجي عودة الحياة إلى جُثَّة وليدها الهامدة.

أخذ الصيّاد يحرك ذراع التَّشغيل بعصبيةٍ تارةً، وتارة يضربها بقبضته وقد صار يرطن بلغة لم أفهم منها شيئاً، ربما كانت من اللغات الهندية الآرية، ربما كانت الباكستانية أو البنغالية أو الهندية..لا أدري بالتحديد.

حركت رأسي لأنظر إلى الصيّاد، فلم يسمح الظَّلام المُحيط لي ولا لأيٍّ من ركاب القارب الآخرين برؤية ملامح الرجل ولا تعابير وجهه، غير أن نبرة صوته وحركته وتوتر جسده كانا يصلان إلى احساسي وسمعي فأقف على حرجه وغضبه وخوفه، وأشفقُ عليه من نفسه ومن قاربه ومنا.

وسط همهمة ركاب القارب الآخرين، ظلَّ الصياد يجاهد أن يستجيب المحرك ويستمر في عمله حتّى يطمئن على استقرار عمولته التي قبضها على الشَّاطئ، رُزمة كبيرة خضراء رأيته يضعها في جيب قميصه العلوي، عند موضع القلب تماماً، وربت عليها كما لو أنَّه يدعوها إلى السّكون والنّوم في سلام.

فوق القارب العجوز كان يتزاحم سبعة رجال بما فيهم أنا، بالإضافة إلى عشرين صندوقاً صغيرة مستطيلة مطلية بالأبيض ومرسوم عليها جميعاً هلال أحمر صغير، رُصّتْ في وسط القارب على شكل هرم.

كانت حمولة رهيبة على القارب المسكين الذي كان يئن طالباً الرّحمة والغوث، وحين لم ينلهما راح يُهدد بلفظ أنفاسه في أيّة لحظة وتعليقنا في منتصف المسافة بين الشَّاطئ وسطح الباخرة العملاقة القابعة على مسافة ليست بالقريبة.

كانت الباخرة قد غادرت ميناء (اسكندرون) منذ ساعة تقريباً، ثُمّ توقفت عمداً بحجة خلل فنّي وهي تقصدٌ انتظارنا، كانت تبدو لي بأضوائها المنعكسة على سطح الماء مدينة أخرى، أو حياً من أحياء (اسكندورنة)، حان موعد فطامه ثُمّ فصاله، حيَ انتشى بالتّمرد وابتهج بالحـ ـرية فأسلم نفسه للبحر الذي سحبه بعيداً عن الشّاطئ.

استجاب المحركُ أخيراً وانطلق يدفع القارب بحمولته بجهد نحو الباخرة التي كلما اقتربنا منها، كلما ازداد حجمها ضخامةً، ومع ازدياد حجمها، كان قلبي ينكمش وتتضاعف دقاته، حتّى صار كقلب طفلٍ رأى الغول الذي سمع عنه في حكايات الجدّات يتجسد أمامه لأول مرّة.

اهتزّ القارب وتمايل فتمايل معه قلبي، توزّع الركاب حول حوافه في محاولة لتخفيف الحمولة ودعوته إلى الاستقرار فوق الماء بسلام، اقترح البعض على البعض الآخر أن يقطع المسافة سباحة، نال الاقتراح همهمات استحسان تناثرت بيننا كما أطواق نجاة، غير أنّ أحداً منّا لم يُجازف لتنفيذ الفكرة فتبخر الاقتراح كما نقطة ماء في قيظ خوفنا الساطع، لم يشأ أحدٌ أن يغامر بالنزول إلى الماء ربما خوفاً من لسعات قناديل البحر أو ربما اشفاقاً من بذل جهد آخر لم يعد أحدٌ منّا يطيق تحمله.

جلستُ على حافة القارب ورحتُ انظر في الفراغ الأسود خلفي، صفعتُ قلبي المذعور ونهرته بعدما لم تُجدِ معه الهدهدة، وكطفل مدلل ردَّ قلبي إليّ الصّفعة عناداً ومزيداً من الفزع، فانتقل الارتعاش إلى أطرافي، إلى كُلِّ خلية في جسدي، وربما إلى صوتي إن تجرأتُ ونطقتُ بحرف.

بلعتُ ريقي، إذ شعرتُ بمخالب قطٍّ تخرش حنجرتي الجافَّة، غلبني سُعالٌ شديد كدتُ أن ألفظ معه ما في جوفي إلى البحر أو فوق الصناديق أمامي، تناهى إلى سمعي صوت أحدهم يعلق على سعالي المتواصل قائلاً:

- ما يزال الوقت مبكراً على دوار البحر.

كان في نبرة صوته ملامح سخرية عفستْ على نداوة روحي المضطربة، فأثارت حَنقي وغضبي، انتابني -في تلك اللحظة- رغبة شديدة في تسديد قبضتي المتهيئة إلى فكِّ ذاك المتعجرف، حتّى تتطاير أسنانه في الهواء، غير أنَّ الظُلمة منعتني من تحديد مكانه، وإن كان صوته وطريقته في الكلام قد وشيا بشخصيته، إنه - ولا شكَّ - جوزيف الفرنسي، ذو الأصول الجزائرية القادم من شواطئ مرسيليا، لم يقنعني يوماً بِأنَّهُ يوسف وليس جوزيف، ولا صدقتُ النسب الشريفي الذي يدعيه، ويتبجح دائماً بِأنَّهُ ينتمي إليه،وبأنَّه أحد ورثة النّبوة،

كنتُ كلما سمعته يردد القرآن بلكنته الغريبة، أو يناقش الإخوان في قضية ما، أو يستعرض موسوعته الثَّقافية التي لا يدري الأغلبية مدى صدقها، أكادُ أقسم لهم بِأنَّ جوزيف هو مجرد جاسوس يرتدي ثوب حاج، وبِأنَّهُ يعمل لصالح المخابرات الفرنسية أو ربما الأمريكية، من يدفع منهما أكثر، لكني كنتُ مقتنعاً في الوقت ذاته بأنَّ لا أحد سيأخذ كلامي ورأيي مأخذ الجدية والتقدير، خاصّة وأنني لا أستند إلى شيء في حكمي على جوزيف سوى احساسي الخالص الذي كان يشمّ رائحة الزّيف والكذب في أقواله وأفعاله ويميزها، كانوا سيسخرون مني، وربما سيرمونني بمحاولة إيقاع الفتنة بينهم وسيقطعون رأسي كما فعلوا بالموصلي (سراج الدين) منذ أشهر، فأركن في النهاية إلى ضبط النفس والاقتناع بعبارة أُمِّي التي أدمنتْ ترديدها في أيامها الأخيرة: "فخَّار يكسَر بعضه ".

تنهدت وبلعت ريقي وغضبي، وأرسلتُ بصري إلى السّماء، كان الظَّلام شديداً والهلال الوليد قد اختفى منذ ساعات، تاركاً مساحة السّماء الصّافية لبلايين النّجوم المُسبحة بقدرة خالقها ومانحها الرّوعة والجّمال.

مَنحني منظر السّماء شيءَ من السّكينة، درب التّبانة يبدو واضحاً مثيراً للعجب والانذهال، كُنت قد رأيته آلاف المرّات في صحراء العراق وجبالها ، غير أن جماله من فوق سطح البحر يمنح الرّائي بِأنَّهُ يراه

للمرّة الأولى، أو بالأحرى للمرّة الأجمل، إذ يبدو أكثر قرباً وأكثر وضوحاً ودهشة، منذ أن خلق الله الدُّنيا وهو كما هو، بلايين الأعين مرّت فوقه فلا تغيرت ملامحه ولا نضُب سحره، مثله مثل كلِّ مخلوقات الله في السّماء التي لم يصلها عبث الإنسان بعد.

أنزلتُ بصري عنه إلى الباخرة اليونانية (آقنوس)، كانت أضواؤها تنعكس على سطح الماء المتموج، وتُجمدُ قلبي في علبةٍ من حديد كلما اقتربنا منها أكثر.

- على بركة الله يا شباب.

قال قُصيّ بعد أن وصله الإذن بالصعود فوق ظهر الباخرة عبر جهاز لا سلكي وبصوت رجل أجش يتحدث بعربية ركيكة جداً:

- على بركة الله يا أبا فارس.

كان يحلو لقُصيّ بأنْ يناديه: أبا فارس، كان رجلاً أربعينياً، أغرّ كجُلِّ أهل الشام، أبيض الشَّعر واللِّحية، كان قد فرّ من كُفر سوسة في قلب دمشق، بعد أن أعتقل إخوته الثلاثة في المظاهرات التي اندلعت في الحي نُصرةً لدرعا في مارس 2011م، هرب إلى حلب بعد أن يأس من استعادة الشعور بالأمان وانظمّ إلى الثُّوار، كان يُظهر لي الكثير من الودِّ، فهو يُعزّ (البنغازة)، ويتوق إلى بنغازي لأنَّه ولد فيها وعاش فيها

طفولته وجزء من شبابه، وكان كثير الأسئلة عنها، لحوحاً في طلب الإجابات، كُنت أجيبه بقدر ما تسعفني ذاكرتي المشوشة، فأحدثه عن سوق أحداش والزريعية والعلوة واللثامة ودكاكين حميد وزاوية بالرزق والبهلول وكوشة زغيبة وجامع كربوني.

صورٌ من طفولتي متفرقة وباهتة وغير ذات أهمية عندي هي كلُّ ما أذكره وأعرفه عن ليبيا وعن بنغازي، بعضها اهترأ وصار ناقصاً بشكل يجعله غامضاً وقابلاً للطي والنسيان.

كان أبو فارس يستمع إليّ وهو يرشف الشَّاي الأحمر الثقيل المُعدُّ على الطريقة الليبية والذي كان يحبه كثيراً، يرفع بصره إلى الأفق في نهاية حديثنا ويقول وكأنَّه يتحدث عن عشيقة:

- هي كما هي.

في آخر مراجعة لتلك الذكريات معه قال لي:

- أتمنى أن أحظى يوماً بامرأة ليبية.

ثُمَّ ابتسم ابتسامة غامضة، وقال:

- ربما ستُعطيني أختكَ (حبيبة)، أليست في بنغازي الآن؟.

كان جاداً إلى درجة أثارت في قلبي رواسب عصبية بالية تقضي بأن لا تتزوج الليبية من غير الليبي حتّى وإن كان عربياً مسلماً، ذاك في العرف الليبي عارٌ ودليل على وضاعة الأصل.

أذكر أن هذا هو ما قاله جدِّي تماماً عن (سُعدة) شقيقة زوجته التي تزوجت بفلسطيني، وكاد أن يُطلق زوجته (زينب) بسبب ذلك، معتبراً أن كون صهره (عديله) غير ليبي – حتّى وإن كان يحمل شهادة استشاري في طب الأطفال – إنقاص من قدره وقيمته الاجتماعية، ولولا أن (زينب) قد تبرأت من أختها على الملأ، وفي كُلِّ مناسبة، وقطعت اتصالها بها؛ لسعى جاداً لتنفيذ ما يمكن أن ينقذُ سمعته.

تناولت ثقل خوفي وجزعي وربطت عصبيتي فيه، ثُمّ رميته في أعماق أعماقي، غاص في روحي وتوسد القاع، فسكن السطح ، غير أن عبارة أخرى من أبي فارس قذفت بالخوف والجزع إلى الأعلى محمولاً على فوهة بركانٍ من الغضب.

قال أبو فارس وهو يقهقه عالياً:

- حين نصل بنغازي، دُلني على مكانها، وسوف آتي بها سبية.

قاومت كثيراً لأكبح جماح غضبي، غير أنه كان من القوة والفوران بحيث طفا على سطح وجهي ملتهباً مهدداً بحرق كل شيء حتّى نفسي.

مالم أكن أتوقعه هو أن لا يستغل أبا فارس ذلك لإدانتي، وهو غالباً ما يفعل ذلك مع الآخرين، يستغل كلَّ بادرة لغربلة الجماعة من كُلِّ ذي نقيصة بحسب ما يقول، كلُّ ما فعله أنه نظر إليّ طويلاً، ثُمّ نكزني بمرفقه ضاحكاً حين رأى سُحب الغضب تتجمع – رُغماً عنّي- في سمائي مُهددة بوابل من النيران والحمم ، قائلاً:

- أمزح معكَ يا رجل.

هل كان اعترافه بأني رجل هو بمثابة قطعة اللحم التي تُقذف إلى كلب الحراسة ليتلهى بها ريثما يسلب اللصّ البيت؟.

أيا كان الأمر فقد تلذذت بها كما يتلذذ طفل بقطعة الحلوى التي نالها مكافأة على إنجازه واجبه، لم اكتفِ بالنظر إليه والابتسام رضاً ومباركةً فقط بل ملتُ إليه وربت على كتفه مشجعاً .

لم يخطر ببالي بِأَنَّهُ كان يخطط للعبة أكبر، وجد أن التريث لأجلها، وتمرير هفواتي والصفح عنها مجرد جسر ليصل إلى هدفه الأكبر، كنت أعتقد فقط بِأَنَّهُ يخاف من خالي، ويحسب له أكثر من حساب، وهو ما أكدته تصرفاته ونحن في الموصل، ونحن في الرقة أيضاً ، حتّى ونحن في حلب، ولا أعتقد بِأَنَّهُ سيتوقف عن الخوف من خالي، إلا إذا توقف خالي عن الحياة.

(3)

لم يكن بيت جدِّي يبعد أكثر من شارعين عن شقتنا في (الصّابري)، لا أذكر تفاصيله من الداخل كثيراً رغم أني قضيت فيه من الوقت أكثر مما قضيته في شقتنا التي استأجرها أبي لأمي بعيداً عن المشاكل مع زوجته الأخرى، لا أذكر بوضوح من تكوين بيت جدِّي سوى حديقته الأمامية الواسعة التي كُنتُ أطارد فيها الصراصير والنمل، وأكسر فيها أجنحة الفراشات والنحل،

كانت الحديقة غرفة عملياتي التي أخطط فيها لمشاريعي الصّغيرة حين لا يكون حبيبة وشقيقها محمود متواجدين في البيت، مكان لا تحتمله زوجة جدِّي - رغم حُبها الشديد له - بسبب الحساسية التي يثيرها في خياشيمها الغبار وحبوب اللقاح المتطايرة من الأزهار والورود، ولا يجده جدِّي مناسباً لداء الروماتيزم الذي خلفته سنواته السبعون، ولا يأمّه أبي إلا ليَنزل بي العقاب أو يجرني خلفه إلى شقتنا كعبدٍ آبق.

مكان مكتظ بأحواض الزهر والأشجار مختلفة الأحجام والأنواع يقوم (مُرسي) البستاني بزيارته مرتين في اليوم، مرة في الصّباح للتنظيف والأخرى في المساء للسقاية، مكان يمكن أن يختبئ فيه (الصّابري) كله

دون أن يلاحظه أحد، كنتُ حين تستفز زوجة جدِّي غضبي أعمد إلى حديقتها، أقوم بنتف بتلات الأزهار وأرميها إلى الأرض، وأكسر أغصان أشجارها وأحفر بها خطوطاً عميقة في مساحاتها الخضراء، كُنت طفلاً سريع الغضب خبيث الانتقام.

اكتشفت زوجة جدِّي جرائمي الصّغيرة مرّة مُدعمة بتقارير (مرسي)، هرعت إليّ، حاصرتني في زاوية من الحديقة وفركت شحمة أذني بين سبابتها وإبهامها حتّى علا ضجيج مُروعٌ في رأسي وصرخت بصوت عالٍ لم أكن أتوقع بِأنَّهُ سيصل إلى مسامع أبي داخل البيت، فهرع إلينا محتقن الوجه منفوخ الأوداج، اجتاز درجات سلم البيت الحجرية الثلاثة عشر في قفزة واحدة، فيما تراجعت زوجة جدِّي في ذعر واختفت داخل البيت.

دون أن يحاول أن يعرف لماذا؟ رأى أبي أدلة جرائمي ماثلة أمامه، فنزع في الحال حزام بنطلونه الجلدي العريض وراح يصعق به ظهري وأطرافي، وهو يردد:

- يا ابن الحرام ماذا فعلت بي؟... يا ابن الحرام ماذا تفعل بي؟

كان يتوقف أحياناً ويقول وهو يشير إلى الباب الذي اختبأت خلفه زوجه جدِّي:

-...هذه مثلُ أمكَ يا لئيم...يا أبله، هذه أمكَ.. أمكَ.. أمكَ .

كان صوته الغاضب الباكي يرتجف وهو يقول ذلك وكأنه كان يؤكد لنفسه بِأنَّ السيدة (زينب) زوجة أبيه ليست أمَه هو، يمكن أن تكون أُمِّي أو أمّاً لأي أحد إلا هو، كا نت عبارته تبدو موروثاً أُجبر على حمله، ربما تحت لذع حزام جلدي عريض مثل حزامه، تركةً أؤتمِنَ عليها ولا يمكن التخلص منها إلا برميها إلى شخص آخر وكان ذاك الشخص في تلك اللحظة هو أنا، لا يتوقف حزامه عن الصفير في الهواء ولا عن حفر تذكاراته في جسدي إلا حين يستبد به التعب، يتوقف حينها مُطأطئً لاهثاً يتصبب العرق من كُلِّ خلية في جسمه، تتلألأ عينيه بدموع مكبوتة هي وحدها من تجعلني – في تلك اللحظة - أغفر له.

بعد تلك الحادثة بأيام جاءني ؛ ليقول مترددا وكأنه ينطق بشهادة زور: بِأنَّ زوجة جدِّي امرأة طيبة ولا تضمر أبداً الشر لأحد:

- تصوّر بأنَّها قد ألحّت كثيراً، بل وبكت وتوسلت إليّ وإلى جدكَ بأن نمنحها إياكَ بعد ولادتكَ مباشرة، كانت تريد طفلاً وتصورتك جائزتها.

أخبرني بأشياء كثيرة عنها، وفهمت بأنَّها تزوجت جدِّي في وقت لم يعد فيه جسدها صالحاً للبذار، قضتْ أربعين عاماً تنتظر الفلَّاح الذي سيمنحها أعظم المشاعر البشرية، الأمومة، غير أنه أتى متأخراً، ومنهكاً، لا يطلب بعد وفاة زوجته الثالثة من الأنثى سوى خادمة تمنحه الأنس

والسهر على راحته وتنظم مواعيد طعامه ودوائه، وحين تكونتُ في رحم أُمِّي رُغماً عن إرادته صحا حلم الأمومة فيها من جديد، كان أبي عازماً على تطليق أُمِّي حال سقوطي من رحمها تنفيذاً لإرادة جدِّي فوجدت هي ذلك فرصة لتبسط كفِّيها عند عنق الرحم تنتظر أن تلامس بشرتي بشرة كفيها ، وتفرّ بي إلى بساتين حنينها، كانت تقدم حجتها لنيل الوصاية عليّ فتقول:

- هذا الطفل – الذي يُشبه جده - لا ينبغي له أن يعيش في بيئة فاسدة كالبيئة التي خرجت منها أمه.

كان هذا رأيها وحجتها التي وضعتها لبنة أولى في بناء حلمها الشاهق الذي لم يتحقق بسبب التصاق أُمِّي المستميت بالحياة مع أبي.

وتساءلت في نفسي، أكنتُ غاضباً منها حقاً حتّى يأتي أبي بجلال قدره ويعتذر عنها؟

كانت حكاية أبي عن زوجة جدِّي تبدو لي بلا عنوان، محاولة غبية لترميم جسر – لم يكن موجوداً في الأساس - بيني وبين زوجة أبيه في الوقت الذي تهوي معاوله على الجسر الذي بيني وبينه وتجعله رُكاماً في قعر هوة سحيقة تتسع وتغور بيننا لحظةً بعد لحظة، كدتُ في تلك اللحظة أن أصرخ في وجهه قائلاً:

- هيه، أيها الرحيم الرءوف.. هلَّا نظرت هنا، نظرت إلينا.. أنا وأنتَ.

لم تكن زوجة جدِّي هي خصمي الرئيس على أية حال، كُنت أصنفها ضمن شيعتي رغم قسوتها في كثير من الأحيان، في بعض الأحيان أشعر بِأنَّ خيطاً رفيعاً يصل بيني وبينها، كلما شدَّته هي أرخيته أنا، وكلما شددته أنا أرخته هي، برغم كُلِّ شيء كُنت أحبّ ركضها خلفي يتناثر لعابها غضباً حين استفزها بتخريبٍ أو إخلالِ بترتيب البيت، أركض أمامها يسبقني الفرح، اختبئ وأعلن عن مكاني لها بضحكاتي المنتصرة المستفزة، أنكمش أمامها حين أقع في أسرها مستعداً لتحمل فرك أصابعها لأذني أو صفعة كفِّها لخدي، أو ضربة رجلها لوركي، وحين تتوقف وتعود، أعود إلى التخطيط لإثارة غضبها من جديد.

لم تكن تطاردني غضباً في كُلِّ الأوقات، كانت في كثير من الأحيان تطاردني حُبّا في الركض واللعب، وأحياناً استجداءَ وتوسلاً، فتُرقِّي رتبي إلى درجة مندوب سامٍ لغاية في نفسها، مندوب يسافر في رحلات منتظمة إلى عناد جدِّي، ونفوره الخفي منها، عفريت من عفاريت سليمان يحمل إليها عرشه، ويُنكر في عيني جدِّي جفائه لها وقسوته عليها، فكانت ترشني بالأوراق النقدية، تغدقني بالألعاب والملابس، وتفرش مائدتها أمامي بالحلوى اللذيذة التي كانت تتقن صنعها، ثُمّ

حين أفرغ من تناول هديتها، ويدور السُكَّر والنشوى برأسي تُقدم لي طلبها:

- عليكَ أن تجعل جدكَ يوافق لي على زيارة أهلي، والإقامة هناك لبضعة أيام ، و... أيضاً يعطيني بعض المال.

كان ذاك الطلـ ـب هو أكثر طلباتها إلحاحاً إضافة إلى طلبات أخرى مثل: التصنت على الأحاديث التي تدور بين جدِّي وأصدقائه، استجداء جدِّي ليسامحها على هفوة من هفواتها الكثيرة، شراء شيء جديد للبيت خاصّة قطع الأثاث التي لا يحب جدِّي تجديدها، وأشياء أخرى، كانت طلباتها صغيرة ساذجة غير أنها كانت تزيد من قيمتي لديها من ناحية، ومن مكانتي لدى جدِّي من ناحية ثانية، ومن اعجابي بنفسي من ناحية أخيرة، لم يكن جدِّي يرفض لي طلباً أبداً ، كان كلما قدمت إليه طلباً من طلباتها يتنهد ويقول:

- آهِ يا زياد، لو لم تكن أنت واسطتها لكان لي شأنٌ آخر معها هذه الساحرة تزوجت بي لغاية في نفسها.

يتنهد، ويشرد قليلاً، ثُمّ يقول:

- فكر معي، ما الذي يجعل امرأة جميلة مثلها تتزوج من عجوز مثلي سوى لأنها ترغب في الاستيلاء على أمواله؟.

حين كان ينعتها جدِّي بالساحرة، كان ينتابني شيء من الخوف، وأتصورها قابعة في ركن غرفتها الواسعة التي لم أجرؤ بعد حديث جدِّي ذاك على دخولها، تقبع في الركن وقد أصبح شعرها الناعم أجعد أشعث متناثراً تحت قبعة سوداء كبيرة مثل قبعات الساحرات، يبرز من تحتها أنفها وقد صار كبيراً بثؤلول كبير أسود، وجحظت عيناها، وصار ذقنها طويلاً مدبباً، غارقة بين أدخنة البخور الخانقة، تردد طلاسماً غامضة، تسرج أحصنة جِنّتها، تحملهم قراطيساً تحوى رغباتها الشريرة، ترسلهم في مهام مُدمرة عبر الجدران وهي تقهقه في انتصار.

أتأكد بأنَّها ساحرة حين ترسم على وجهها تلك الابتسامة حالما أحمل إليها صكَّ تمرير طلباتها، ابتسامة تشع بالسعادة الممزوجة بشيء من القرف، أتأكد بأنَّها كما قال عنها جدِّي تماماً، ليست معه لأنها تحبه، وليست معي لأنها تحبني، فأنا هنا مجرد عود من أعواد بخورها، مستعدة لوضعه في النار حالما يحين لها طلب.

بين متعتي من مطارداتها، وأحاديث جدِّي عنها صرت أبتعد عنها شيئاً فشيئاً، توقفت عن التخطيط لمجرد استفزازها، صرت أخطط لأؤلمها، لأوقف سحرها على جدِّي، لانتقم منها.

في أحد الأيام سرقت ثوب زفافها الذي تعلقه في خزانة ملابسها، وذلك حين كانت غائبة في زيارة لأهلها، وضعته في كيس أسود، ورميته في حاوية القمامة، لكنها – بعكس توقعاتي - لم تفقده ولا اهتمت

لضياعه حين سألتها عنه، لا ثارت ولا تألمت ولا بكت، مما أثارني وآلمني وأبكاني، هزيمة لم تُثنني عن ابتكار الوسائل التي قد تُوقع بها، فعمدت مرة أخرى إلى زيادة كمية الملح في وعاء طبخها، وحين اكتشف جدِّي ذلك صرخ في وجهها:

- تريدين أن ترفعي ضغطي، تريدين أن تقتليني، سأطردكِ، سأطلقك.

كانت ترتعد حائرة، تتوسله بأن يهدأ، وتعده بأنَّها لن تكرر خطأها، لكنها حين صارت خارج نطاق رؤيته ابتسمت ابتسامة استحسان، وحركت حاجبيها فرحاً.

فخاخ كثيرة نصبتها لها، كانت تقع فيها وتتألم، ولكن ليس بالقدر الذي أريد ، ليس بالقدر الذي يُشعر طفلاً يمتشق حُسام المسئولية بِأنَّهُ أحرق ساحرة وخلَّص العالم من شرِها، إلى أن اكتشفت يوماً بِأنَّ أكثر شيء يؤلمها هو غيابي عن بيت جدِّي، لم تكن تعرب عن ذلك كلاماً، بل رأيته في تلألأ عينيها حين أعود إلى بيت جدِّي، كانت تبدو مثل قطَّة جائعة رأت فأراً يدخل مجال بصرها ، لمعت في ذهني – حينها - فكرة أن أحرقها جوعاً، وفي الحال نفذتُ فكرتي، والتزمت البقاء مع أُمِّي في شقتنا رغم أنها كانت جحيماً حقيقياً لا يُطاق.

زارني جدِّي مشتاقاً معاتباً، وصبّ بالطبع جمام غضبه على رأس أُمِّي وأتهمها بأنَّها هي من تمنعني عن زيارته، كما اتهم زوجته أيضاً

بأنَّها السبب في هجري للبيت، أخبرني بأنَّها صارت ساهمة باكية، تلازم غرفتها ليل نهار، ثُمّ استجدته – أخيراً وصراحة - بأن يذهب ويعود بي.

- الساحرة، لن تنجح طقوسها إلا إذا كنتُ هناك، لن أذهب، لن أذهب أبداً.

قلت ذلك في نفسي وأنا أكثر تصميماً على كبَ مزيد من الزيت ووضع مزيد من الحطب فوق المحرقة التي نصبتها لها.

لم أكن أدري بأنني كُنت أنصب المحرقة لنفسي، ليس لأي أحد بل لي وحدي.

(4)

تدلى سُلمٌ مجدولٌ من الحبال من فوق سطح السفينة كأفعى أناكوندا متعددة الأ فواه، فقال أبو فارس وهو يُمسك بطرف السُلَّم:

- سأصعد أنا أولاً ؛ لأرفع الصناديق، وليتبعني أبا طارق.

حين أشار إليّ بأن اتبعه ارتجف قلبي وعاد يدقُّ بعنفٍ من جديد، فهذه أول مرّةٍ أصعد فيها على متن مركبٍ بمثل هذا الحجم الهائل، بل إن هذه أول مرّة ابتعد فيها عن الشاطئ إلى داخل البحر كل هذه المسافة.

نظرت إلى الأعلى، كانت الحاويات الحديدية الكبيرة تملأ سطح الباخرة، بعضها مطليّ بالأصفر أو الأزرق وأكثرها كان مطلياً باللون الأحمر، تساءلت في نفسي عمّا يمكن أن يكون بداخلها، أتراها مؤن أم سلاح أم بشر؟ فـ (أناتولي) اليوناني مالكُ هذه الباخرة لا يتورع عن المتاجرة بأي شيء، يفعل كل ما يمكن أن يجلب له المال الذي ينفقه على الغانيات والشراب في ملاهي أوروبا.

تسلق أبو فارس الحبل حافي القدمين، بدا بحجمه الضئيل وأطرافه الطويلة الناحلة كقردٍ يتسلق شجرة موز، صعدتُ خلفه بحسب ما

طلب بسرعة أكاد أصعد بها فوقه حتّى صعقت أنفي رائحة البول المنبعثة من سرواله الشامي الفضفاض، تراجعت، ابطأت حركتي وكتمت أنفاسي وأنا أحاول أن اسيطر على الاضطراب الذي استولى على أحشائي من جديد.

أخيراً وطئت قدماي سطح الباخرة، تنفست بعمق هواء منعشاً بارداً عدَّة مرات فزال الغثيان وشعرت بالراحة.

سبحان الذي يُغير ولا يتغير، وأنا على السطح لست أنا الذي كان على متن القارب قبل قليل، غمرني شعور بالأمان والدهشة والانبهار، شعرت بالسيطرة والقوة، وبِأنَّ المكان الفسيح المكتظَّ يُرحب بي، بل ويمنحني وعداً صادقاً بالوصول إلى غايتي بأسرع وآمن الطرق، كانت (آقنوس) في تلك اللحظة تُشبه كفَّ أُمِّي - في لحظات صفوها -عندما تقرأ في سكوني وطأطأتي غضباً أو خوفاً أو شعوراً بالضياع فتمسح على شعري في صمت، أو تربت على خدِّي بحنان، فيَصبح للمستها فعل السحر وتختصر المسافات على الكلام، تقتلع بكفِّها الحانية كل جذور الألم المتأصلة في روحي وتبذر في مساحات توقي الكثير من الأمل.

أحببت آقنوس في تلك اللحظة، واجتاحتني رغبة في الارتماء على سطحها ومعانقتها طويلاً وتقبيل حديدها وألواحها المشبعة بالملح، هتف في قلبي صوتٌ يردِّد بِأنَّ الرحلة التي أنا على أعتابها قد قاربت على الانتهاء، وليست (آقنوس) سوى عتبة سأحطُّ منها بعد بُرهة فوق

شواطئ بنغازي، فوق ترابها ورمالها التي فارقتها لأكثر من ثلاثة عشر سنةً وأبدأ رحلة رد اعتباري، وكما وعدتني جنّيات خيالي سأتقلص حتّى أعود طفلاً صغيراً وأسلخ عنّي كل سنوات الاغتراب، سأجمع السنوات الثلاثة عشر، ساعة بساعة وثانية بثانية، سأضعها كلها في كيس خشن مظلم وأرميها خارج نطاق ذاكرتي وأصمّ أذناي عن عوائها الباهت، سأغربل أيضاً سنوات طفولتي في (الصّابري)، أتشبث فقط بلحظات الفرح والسعادة وأوجه صوب البقية شاحنة مفخخة تمحوها من ذاكرة الأيام وذاكرتي.

تُرى كم سيكون عمري حين أفعل ذلك؟ أسبوع، شهر، سنة؟ لن يكون أكثر من ذلك على أية حال، وهو عمر لا ذاكرة فيه.

نشلنا الصناديق واحداً واحداً، وضعناها فوق بعضها البعض فوق سطح الباخرة، صعد بقية الرفاق، ووقفنا جميعاً نراقب القارب الصغير وهو يفرّ عائداً إلى الشاطئ.

حمل الرجال الصناديق المستطيلة البيضاء، ذات الهلال الأحمر الصغير إلى مكان لا أعلمه على متن الباخرة، كان هذا شأن الجماعة معي مذ سافر خالي وتركني في عهدتهم، أصبحوا يخفون عنّي أشياء كثيرة، والحقيقة أنهم كانوا يفعلون ذلك حتّى بوجود خالي.

م نذ قُتل رشيد صديقي الوحيد وتركني وحيداً عاد خالي يحتل مكانه الفارغ في حياتي، صار يُطيل الجلوس معي ويطلعني على كُلِّ ما يدور بينهم، وهو الآن ليس معي، ولو لم يطلب هو منهم أن يأتوا بي معهم لما سمحوا لي بمرافقتهم.

كان قد استقبلنا (أناتولي) على سطح الباخرة مع رجلين ممتلئي الجسم، حين اقترب احدهما منّي ليَسلمَ عليّ، كانت أمعائي حاضرة لأي استثارة، فكدتُ أن أتقيأ فوق وجهه حين هاجمت خياشيمي روائح حادة عفنة هي خلاصة لعرق وخمر ودخان سجائر ورائحة أسماك، وأشياء أخرى.

سعلت كثيراً، وخطفت يدي من بين أصابعه الضخمة، أدرت و جهي إلى البحر طلباً للهواء النقي مرّة أخرى، لحسن حظّي لم يسألني أبو فارس أن أمدَّ له يد العون في رفع الصناديق المستطيلة، إذ عاونه بقية الرجال مع الرجلين الضخمين اللذين بدا وكأنهما معتادان على فعل ذلك.

اختفى الجميع وجلست في مكاني وحيداً عند القضبان الحديدية اللامعة التي تسوّر سطح الباخرة، نظرت إلى الشمال الشرقي، بعيداً هناك على مسافة ليست بالبعيدة تنام إسكندرونة، أميرة هادئة ساحرة تتوجها حُلَّةٍ من الأضواء التي لا تنام ، تحيطها جبال (النّور)

بالدفء والجلال، وتلثُمّ قدميها مياه البحر المتوسط مانحة إياها الطهر والعظمة والجلال.

رنوتُ إلى البعيد، إلى المرتفعات الشاهقة الغامضة، في بقعة مجهولة هناك، وتحت شجرة بلوط ضخمة دفنت أُمِّي منذ يومين، أرى قبرها الآن بعقلي نقطة مضيئة تُشع بالسكينة والسلام، كُنت قد أخبرتها قبل أيامٍ بأنَّني تحصلت على إذنٍ بالجهاد في بنغازي، شهقت حينها، وأشرق وجهها بنّورٍ لم أرَ مثله في حياتي، شردتْ للحظات تتلألأ في حدقتيها دمعتين كبيرتين مكابرتين، ظلَّتْ جامدة فاغرة الفاه حتّى أنها لم تنتبه لخيط اللعاب الذي سال عبر طرف فمها وأنساب إلى الأسفل، فسحبت كمّ قميصي فوق قبضة يدي ومسحته.

لم يغا در النّور صفحة وجهها منذ تلك اللحظة، غادرها الوقار الذي كانت تتعلق به لسنوات، وأصبحت تتحرك كصبية عاشقة ترقب لقاء الحبيب، تنظر طويلاً في المرآة، تتنهد وتبتسم لنفسها، تحدث نفسها، وتحسب أشياء بأصابع يديها، لعلها الأيام التي تفصلنا عن موعد السفر، لعلها سنوات عمرها التي قضتها بين المحطات، لعلها آمالها التي كانت تتمنى تحقيقها، ليست الجَراح على كُلِّ حال، فهي الشيء الوحيد العصيّ على العدِّ عند أُمِّي.

لا ينبغي أن تكون وحيداً؟

قالها أبو فارس وهو يتخذ مكانه إلى جانبي ويحك ظهره على الحديد خلفه.

رائحته التي تصاعدت في المكان طردت الجوع من أمعائي، أقالت فرحي الطارئ بالمكان، ورسمت الحياة في عيوني بليدة باهتة لا تستحق أدنى اهتمام.

نظر إلى السّماء، تنهد، ثُمَّ قال بنبرة حالمة:

لم يبق على صعودي إليكن سوى بضعة ساعات.

نظرت إلى السّماء ببلاهة وكأني لا أعرف مع من، أو عمّا يتحدث؟.

رفع يده إلى السّماء فتصاعدت رائحة إبطه المركزة، تابع بذات النبرة:

سيكونن بعدد تلك النجوم.

أدرت وجهي إلى الجهة الأخرى كي لا يرى ابتسامتي وقلتُ بقرف:

أية حورية يمكن أن تحتمل رائحتك يا أبا فارس؟.

دون أن يعير اهتماماً لسخريتي قال بحماس، وبصوت ناشجٍ مؤثر:

أتصورهن يا أبا طارق، صغيرات جميلات ناعمات ثيبات وأبكاراً، يتهادين دلالاً وغنجا.

برغم سخريتي من تصوراته سرت رعشة في جسدي كله، سارت كما موجة حامضة قوية من منابت شعر رأسي وتركزت كاوية بين وركي، انتصب عضوي الذكري فضممت ركبتاي إلى بعضهما بسرعة وكأنني أخشى اكتشاف أمره وأمري.

طار عقلي إلى سميرة، رأيتها تتسلل على أطراف أصابع قدميها إلى غرفتي، تتهادى في ثوب حريري شفاف يمكنني من خلاله قراءة كل تفاصيل جسدها المثير، تنساب تحت غطائي، وتعانقني إلى الصّباح ، تزيل برائحة جسدها الفاتن عن روحي كدر العالم كله.

وكأن أبا فارس قد شاهد عقلي وهو يحلق في سماء الخيال قال:

- لسنَ كنساء الدُّنيا أبداً يا أبا طارق.

أهن أجمل من سميرة، وأنعم، وأرقُّ، وأزكى رائحة؟ لا أظن ذلك، كان أبا فارس في تلك اللحظة في نظري مجرد شخص يهذي، قد أتعاطف معه، لكنني لا أصدق كل ما يقول:

- نعم، نعم.

أجاب وكأنه قد سمع سؤالي لنفسي، ثُمّ تابع وهو يحدق في الفراغ مُشرِعاً ذراعيه في الهواء وكأنه يستعد لاستقبال أحد:

- حورياتي... عتبة صغيرة....أجتازها وأكون بينكن.

اعترف بأني أحسست الغيرة في تلك اللحظة، وانذهلت من نفسي كونها مستعدة وبسرعة لتغيير قناعاتها الصّغيرة التي ظننتها راسخة، بدأت حوريات أبا فارس يزاحمن سميرة في خيالي، يدفعن طيفها إلى الحافة، ويعملن جاهدات على إسقاطها من قمة تفكيري، يتغنجن أمام خيالي حتّى أصابتني نشوة لذيذة واقتنعت بِأنَّ حوريات الجنَّة لسن لأحد غيري، سألته أواري حسدي:

- عتبة صغيرة؟

- نعم، نعم، عتبة صغيرة، لقد قررتُ يا صغيري أن أنفذ عملية جهادية في بنغازي، الموت ورائنا طالت أعمارنا أم قصُرت، أليس من الأجدى إذن أن نختار طريقة موتنا بأيدينا، أن نختصر المسافة التي تفصلنا عن بهجة الآخرة، وتنشلنا من عذاب الدَّنيا؟.

في كلامه كثير من الصدق، فلا أحد يعيش أبداً كما لا أحد يختار طريقة حياته، الحياة هي عبارة عن ممر أرضيته أوحال، وسقفه أمانٍ مستحيلة التحقيق، أما الفراغ بين الأرضية والسقف فهو مكتظٌ بالروائح العفنة، لا نوافذ لاختصار المسافات أو تخفيف وطأتها، كما لا مكان للرجوع إلى الوراء.

كدتُ أن أسأله أن يتنازل عن المهمة لي، غير أن عقلي اعترض: ماذا عن (منال)؟ ماذا عن (حبيبة) أختي، عن محمود، عن خالتي (فتحية)، عن صديقاي (مرعي)و (علي)، عن جدِّي وزوجته، عن....أبي؟

هناك ركامٌ هائل من الأسئلة يسدَّ طريق طموحاتي، أحتاج أن أصعد إلى الجنَّة خالي الوفاض، أطأ ثراها مُفرغ القلب من الحيرة، مُدملُ الجَراح ، مُسجى الآلام، أحتاج أن أسأل، وأفهم، وأحاسب، وأعاقب، ثُمَّ بعدها أنام في أحضان حورياتي قرير الفؤاد.

- يا صغيري.. لقد تعبت نفسي شوقاً إلى الجنَّة وأطايبها وحورها.

قالها ابو فارس بعد أن بلع ريقه تأثراً، ثُمَّ تابع بنبرة رقيقة ما لمستها في حديث له قبلاً:

- والله أني لأشم رائحة الجنَّة، وأرى حسانها يدعونني إلى أحضانهن، والله إنِّي بذات الشوق إليهن، والله...

قطع كلامه نشيج حاد، فانخرط يبكي بشدة، ولهول عجبي من نفسي بكيت أنا أيضاً، بل أنِّي نسيت رائحته وعانقته طويلاً وبشدة.

(5)

شوارع (الصّابري) هي جزء من بهجة الحياة الصّغيرة عندي، كنتُ أطوفها مع رفاقي وقرنائي نلعب (أعظيم الساري)[1] تحت وهج الشَّمس أو تحت ضوء مصابيح الشوارع الشاحبة، نركضُ بين الحارات والأزقة، وتعلو أصواتنا في الآفاق ونحن نغنّي:

أعظيم الساري

رياش بقاري

ريته ما ريته

في السما عليته

طاح يمينه

طاح ايساره

طاح يلقّط في النصارى

---

[1]. لعبة شعبية معروفة في أغلب المناطق العربية ، وتُسمى في الجزيرة العربية والعراق والشام باسم (أعظيم وضاح) ، وفي السودان باسم (شليل) و(الخضيرة) في اليمن، وفي الإمارات (عظيم السرا أو عظيم لوح)

والنصارى أجلوف أجلوف

والكلبة جابت حلّوف [2]

وعندما تبدأ السّماء تتلبد بالسُحب في فصل الخريف نستحث المطر على الهطول مردِّدين ونحن نطوف في الشوارع:

يا مطر صبَي صبَي

طيحي حوش الربَّي [3]

والربَّي ما عنده شي

أمفيت أقطيطيسة وأجدَّي[4]

عندما كُنَّا نردد مثل تلك الأغنيات صغاراً، لم نكن نعي تماماً ما تعنيه كلماتها، ثُمّ كبرتُ وسألت عن معانيها عندما تطفو كلماتها- بين الفينة والأخرى -على سطح الذاكرة، وحين فهمت أصبتُ بالذهول وغمرني اعجاب شديد بذلك الشاعر المجهول الذي ابتدع تلك الأغاني،

---

[2] معنى كلمات الأغنية ، أن الصغير أتخذ من (رياش البقاري) وهي عظام صدر البقر ، أتخذ منها سيفاً ، يضرب به يميناً وشمالاً ، فيطيح برؤوس النصارى ، ويقطعهم (جلوف) أو أشلاء ، ثُمّ تنتهي الأغنية بصورة مستحيدة وهي (الكلبة جابت حلوف) أي أن تلد الكلبة ، وكأن الأغنية تريد أن تؤكد أن الصورة الأولى وهي مقارعة النصارى بـ (رياش البقاري) مستحيلة ، وغير ممكنة .

[3] الربَّي : اليهودي المرابي

[4] الأغنية عبارة عن دعاء ، يطلب قائله من المطر أن تصبّ بغزارة وقوة حتّى تهدم بيت اليهودي (المرابي) ، ولا تترك له شيئاً حتّى قطته ، وجديه ملكه الوحيد الذي يملكه

ففي الوقت الذي كُنّا نردد كلماته بعفوية الببغاء، ونستمتع بوقع موسيقاها في أرواحنا الصّغيرة كان ذاك الشاعر يقف في الخفاء خلف أجمة رؤيته الهادفة، يراقب بسعادة كلماته وهي تغرس جذورها في أرواحنا الصّغيرة، تنمو في مساحاتها الخصبة، وتتكاثف تحت دفق فكر الجماعة والقطب الواحد، حتّى أصبحت غابات مظلمة شائكة لا ننجو من الضياع فيها إلا بربط أعصبة على أعيننا وتسليم لجام أرواحنا لمن أفهمونا بأنهم يفهون أكثر.

كانت أولى ثمرات تلك الأغاني أنني رأيت في شعبنا شعباً أحمقاً غ بياً جباناً يوكل أمر النصارى إلى (رياش البقاري)، وأمر اليهود إلى المطر، أما كان الأجدى به أن يُعلم أبنائه كيف يلتقطون أرواح النصارى بأيديهم؟ وكيف يهدمون بيت اليهودي ويقتلون حتّى قطته وجديه الوحيد بأنفسهم؟.

على أية حال، كانت تلك الأغاني مبعث سرور وبهجة، ولكي يمضي بنا الوقت الثقيل دون أن يعصر قلوبنا بين فكيه القاسيتين كُنا نصنع سعادتنا بأيدينا، نلتقط العصي من الشارع نتصورها بندقية متطورة تطلق وابل الرصاص وتهزّ أجسادنا، ونشكلُ جماعات نتواجه بين الأزقة في حرب شوارع، نُهزم وننتصر دون أن نملَّ أو نرفع رايات الاستسلام ، نتهادن لنبدأ من جديد ونتصور بِأنَّ التراب أصبح أحمراً من غزارة دماء أعدائنا، وأن الحجارة الصّغيرة المتناثرة على الطرقات

هي بقايا جثثهم، وعيدانهم التي تركوها غنائم حرب، وإن وقع منهم أسرى لابد أن يضحي أحدهم ويركض إلى بيته، يتسول أمه أو يسرق منها شيئاً من مؤنة أو متاعاً أو مالاً، المهم أن يعود بالفدية التي هي – في غالب الأوقات - عبارة عن قطع حلوى أو بسكوت نشتريها من دكان العجوز (نوعام) الدكان الوحيد في شارعنا، وحين ننال انتصارنا النهائي ندور بين الشوارع مرددين:

رصّيناهم رصّة ريّة

أتقول طماطم في حكية[5].

أغلب أوقاتنا في فصل الصيف نقضيها في الشارع، إذا أن قناة التلفزيون المحلية الوحيدة لا تبدأ في بثّ برامجها إلى بعد الخامسة مساءَ، وكان المسلسل الكرتوني المعروض في تلك الفترة هو (مغامرات سندباد) الذي تدعونا موسيقى مقدمته الصادحة عبر النوافذ إلى رمي ما بأيدينا والاندفاع إلى داخل بيوتنا مهللين فرحين، والجلوس أمام شاشة التلفزيون بأوساخ وأتربة الشارع العالقة بأحذيتنا وملابسنا، مأخوذين بتلاحق المشاهد لا يرفُّ لنا جفن ولا نتحرك دون انتهاء حلقة اليوم حتّى ولو قامت القيامة.

---

5 عبارات تعبر عن الفرح والانتصار ، وتحمل معاني الشماتة والشعور بالقوة ، فقائلها يصوّر انتصاره على أعدائه بِأنَّهُ رصّهم في علبة صغيرة ، حتّى أصبحوا كالطماطم المعجون المعلب .

ذات مرة عاد أبي إلى البيت من عمله، وجدني أجلس أمام التلفزيون أشاهد المسلسل، أثاره صوته المرتفع، لم ينبس بكلمة – أو هكذا خُيل إليَ – راح يركل جانب جسدي بحذائه العسكري الضخم وأنا مُعلق العينين والقلب بالشاشة، لم أكن أشعر بوقع ركلاته على جسدي إلا حين انتهت حلقة المسلسل، ومن ثُمّ رأيت فداحتها بقعاً ارجوانية كثيرة على جانب وركي، كُنتُ أطير إلى ذلك العالم بروحي، أسبح في ممالكه، أطير على حصان خشبي أو بساط سحري وأجوب العالم، أمسح رأس خاتمي أو مصباحي ليخرج عبدي المارد ويحقق أمنياتي، ألبس ما يبهر الآخرين، الأولاد في الشارع وفي المدرسة، أبي وأمي، جدِّي و...زوجته، وعلي ومرعي، الجيران، أقاربنا الذين لا أعرف منهم إلا ما يقوله عنهم أبي، خالتي فتحية وخالي أنور، و.. منال.. تلك الصبية التي تبهرني حدائق عينيها، فأتصورها أميرة، أسري إلى سمائها على كفِّ خادمي المارد، أخطفها راضية، وأسكنها قصري المنيف سبية سعيدة، آكل ما يثير غيرة كلُّ هؤلاء مني، أنام في الحرير فأقهرهم بسعادتي، وأصحو على شقشقة العصافير والبلابل فيموتون غمّاً وهمّاً.

كانت شخصية (علي بابا) هي أكثر شخصية تسكنني، كُنت مفتوناً بقوته وجرأته، بشجاعته وأحلامه الكبيرة، كان يعجبني بقِصَّة شعره التي تواري نصف وجهه، وعضلاته المفتولة التي تثير الجميلات، وحبله الملفوف في حلقات في حزامه كدليلٍ على ماضٍ لصوصي عريق، وأداة جاهزة لاجتياز المصاعب وأداء المهمات الجديدة.

كان (علي بابا) يفتنني بكل شيء فيه حتّى بخنجره العريض الذي لا يفارق خاصرته، حتّى أنني عملت على إطالة شعري، وتثبيت غُرته برغوة الصابون على جانب وجهي، ثُمّ عمدتُ إلى المطبخ وكتلميذ في المراحل الابتدائية الأولى اخترت من السكاكين الكثيرة والمتعددة الأحجام واحدة صغيرة تناسب بذرة الجرأة والشجاعة التي غرستها للتو في نفسي، عندما تكبر البذرة ويزداد حجها سوف يكبر السكين ويزداد حجمه أيضاً، كان ذاك وعداً مني لي، دسسته في جيبي، ظل – بعد ذلك - يرافقني في طلعاتي خارج البيت، وحين أعود أطمره في كوّةٍ تحت الدرج، ثُمّ يعود إلى جيبي حالما أغادر العمارة.

لسوء حظي، غمز نصل السكين اللامع تحت شعاع الشَّمس يوماً لمعلم الإشراف، التقطني بين يديه مثل دودة، وبنشوة فلاح يُنقي محصوله من الآفات قادني في الحال إلى الإدارة، رماني في الركن ككيس قمامة مملوء بالجراثيم ثُمّ علَّق قدماني في الفلقة، أتى بطالبين من أولئك الذين يجندهم لحسابه مقابل اعفاءات أو درجات أو مساعدة في امتحان، أو حتّى بدون مقابل ؛ ذلك لأن بعض الطلبة يشعرون بأنهم أصبحوا مدراء أو معلمين لمجرد أن هؤلاء راضون عنهم، كُنا نُطلق – نحن مجموعة التلاميذ الغير مقربين من الإدارة - على هؤلاء لقب (الحرس الثوري)، وكُنَّا نمنح كل واحدٍ منهم رقماً ولقباً خاصاً به بما توحي به هيئته أو طريقة حديثة، استدعى معلم الإشراف اثنين

منهم، رقم ثمانية (عمران الأحول)، ورقم عشرون (وسيم لكلوكة)، سميناه كذلك بسبب التأتأة التي كان يعاني منها.

الحق يُقال بِأنَّ(وسيم لكلوكة) و(عمران الأحول) قد كانا في فترات كثيرة رسل سلام من معلم الإشراف وغيره، عرضا عليّ في أكثر من مناسبة أن انظم إليهم وأن أكون عيناً للنظام، ويداً لتثبيته وترسيخه في المدرسة، غير أنني لم أحب المدرسة يوماً فكيف أسعى إلى ترسيخ النظام فيها؟ لم يكن ذهابي إليها كل صباح إلا خوفاً من عقاب أبي الذي لا يكتفي بجلدي عادة بل يطال بسوطه حتّى جلد أُمِّي باعتبارها مسئولة وحدها على تربيتي وتعليمي.

كان معلم الإشراف يُنزل جلداته على باطن قدمي وهو يلوح بعصاه أو قطعة من خرطوم مياه (التبو) في اليد الأخرى مردداً:

- سكين أيها المُجرم؟.. سكين؟.. غداً ستأتي للمدرسة بسيف أو ساطور يا ابن الرائد عبد الحميد، يا ابن النظام، وحارس النظام.

كان صمتي وعدم استجدائي له، وصومي عن البكاء وعن طلب عفوه ورحمته تزيد من ضرام غضبه، لم يكن ييأس مني بعد أن يستبد به التعب- كما كان يفعل والدي، بل كان يأخذ فترة استراحة، يجرع خلالها جرعة ماء، ويمسح العرق المتصبب من جبينه بطرف كُمِّهِ ثُمَّ يعود إلى الفلقة.

عُدتُ يومها إلى البيت متورم القدمين، بالطبع لم استطع أن أضعهما على الأرض ؛ لذا حملني رفاقي في الفصل حتّى باب العمارة حيث وجدت صديقاي (علي) و(مرعي)، الذين حملاني - بدورهما - إلى شقتنا في الدور الثاني، صُعقت أُمِّي وولولت احتجاجاً على ظلمٍ أحسته فجعلت من قِصَّة الفلقة فضيحة تتداولها الأفواه عن ابن الرائد عبد الحميد الفاسد السلوك.

أُمِّي تقف دائماً إلى جانبي ظالماً أو مظلوماً، تترجم كل سلوكياتي التي كان الآخرون يرون فيها أخطاءَ إلى حقوق، من حقي أن أردَّ، من حقي أن أقول ما أقول، من حقي أن أغيب عن المدرسة، من حقي أن لا أؤدي واجباتي، ومن حقي أيضاً أن أحمل السكين في جيبي، هي لا تضع قائمة حقوقي تلك إلا وقد جهزت إلى جانبها قوائم للمبررات، فربما حملت السكين لأني وجدتها ملقاةً في فناء المدرسة، وخفت بأن يتضرر بنصله الحاد أحد الطلبة صغار السنِّ، ربما هي مكيدة من أحدهم، وربما وربما.. وحين صعقها والدي بقوله بِأنَّ السكين لم تكن ملقاة في فناء المدرسة بل إنها إحدى سكاكين مطبخها، كانت جاهزة التبرير أيضاً، إذ ربما وضعتها في جيبي خلطاً وخطأ ونسيت أن أعيدها إلى المطبخ قبل أن أذهب إلى المدرسة، وفي أسواء الأحوال فلربما طلبها مني أحد الطلبة وحملتها إليه خوفاً ورعباً، هي تراني دائماً تابعاً للآخرين يستحيل أن أفكر في شيء دون أن يطلبه مني أحد، وليس أي شيء، الأشياء الخاطئة فقط، أما الأشياء الصحيحة والسلوكيات

الإيجابية فهي متأصلة فيّ – بحسب اعتقاد أُمِّي – وقد ورثتها عنها هي خصيصاً في تعريض لسلوكيات أبي.

أبي – على عكس أُمِّي تماماً يراني دائماً مجرماً صغيراً، قد حملت في جسدي جينات خالي أنور وورثت سلوكياته، ومثل خالي أنور يسكنُ في نظراتي شيطان صغير ؛ لذا لم يستبعد فكرة حملي لسكين إلى المدرسة، بل إنه لا يستبعد فكرة حملي لبندقية أو حتّى مدفع رشاش، كان جاهزاً ليربيني من جديد في ذلك اليوم كما قال، كعادته فكَّ حزام بنطلونه، وتهيأ ليَجهز عليّ، خطرت لي فكرة عملت على تنفيذها على الفور قبل أن يهوي بحزامه على جسدي، صرخت به، وأنا أتذكر جعفر في فيلم الرسالة حين أنقذ المسلمين باعتراض قرار النجاشي بكل شجاعة:

- المعلم فؤاد قال عنكَ كلاماً جرحني.

نجحت عبارتي في شلِّ يده كما نجحت الآيات التي تلاها جعفر في وقف تنفيذ حكم النجاشي، توقفت يده في الهواء قليلاً كما سكن صوت سلاسل النجاشي، ارتعشت، ثُمّ هوت إلى جانب جسده، اعتدل في وقفته، زمّ شفتيه، فكَّر قليلاً ثُمّ سأل:

- ماذا قال؟

ابتسمت في داخلي، وكقرصان واعٍ استلمت الدفَّة من القبطان الثمل بالغضب، قلت قبل أن يفيق من سكرته:

- قال أشياء سيئة عنكَ وعن النظام .

عقد حاجبيه دهشةً وغضباً، لم أنس بالطبع أن أنقل له – بأمانة - نبرة السخرية التي كان يتحدث بها المعلم فؤاد، حينها استشاط غضباً، وقال وهو يضغط على أسنانه غيضاً:

- سيعلم غداً هذا المعلم البليد ما هو النظام؟.

بعد أيام، وبعد أن شُفيت قدماي، عُدتُ إلى المدرسة، اكتشفت بِأنَّ المعلم فؤاد قد اختفى تماماً كما اختفى غيظ والدي – الذي لازمه أياماً، كما شعرت بِأنَّ انقلاباً قد حدث في المدرسة أثناء غيابي، برغم أن المعلمين هم نفس المعلمين والطلبة هم ذات الطلبة، كذلك البناء والأثاث والروتين، والنظام هو النظام، التغيير كان في سلوكيات المعلمين والطلبة نحوي، أخذ الجميع يعاملونني وكأنني امبراطور، حتّى المدير نفسه صار يبتسم في وجهي، ويخفي عصاه التي تلازمه حين يراني وكأنه طفلُ يُخفي يديه الملطختين بالأوحال، وحدها (منال) لم تعبأ بي، بل إن نظرتها إليَ قد صارت مشحونة بالاشمئزاز والقرف .

حين رويت لصديقيَ (علي) و(مرعي) تلك القِصَّة، منحني (مرعي) سكيناً صغيرة جديدة وحادة النصل، تُطوي بسهولة وتُفتح بضغطة

صغيرة على زرٍ في مقبضها الخشبي الأحمر، هديته أثارت في نفسي عواصف شائكة من الفرح والخوف والدهشة، اعترض (علي) بشدة، وقال بصوت يرتعش:

- ربما سيعثرون عليها في جيبكَ، ستُطرد من المدرسة بالتأكيد هذه المرّة، ولن يقف والدكَ في صفِّكَ، وسيَعاقبكَ هو فوق الفلقة.

لم تثر مخاوف (علي) في نفسي سوى رياح العناد والتحدي التي طغت على كُلِّ خوف في نفسي فقررت الاحتفاظ بالهدية، وتخيلت المعلمين في المدرسة يختفون واحداً إثر الآخر مثلما حدث مع المعلم فؤاد ، تخيلت أيضاً نفسي حُرّاً من المدرسة، أسرح في شوارع (الصّابري)، بل وبنغازي كلها دون دروس مملة، ومعلمين ساديين ثقيلي الدم، دون واجباتٍ وامتحانات وسهر، دون استيقاظ صباحي متعب، ولا خطواتٍ مغصوبة عبر شوارع تكتظ بالعبيد المجبرين مثلي، وأحببت أكثر، موضوع غضب والدي مني ومنهم، معنى أن يثور أبي بسببي فهو في حد ذاته انتصار لي، تحقيق لذاتي، إثباتٌ لنفسي بأنني شخص مؤثر، وبأن الآخرون، وخاصة أبي يهتمون لأمري من ناحية أو من أخرى، ويثورن بسببي ولي لسبب أو لآخر، ومع اكتشافي لقدرتي على الاقناع بوسائل مشروعة وغير مشروعة أدركت بأنني شخص يملك قدرات مثل الآخرين بل وأفضل منهم، قدرات قد تصل بي إلى درجة التفوق والتميز عنهم، أدركتُ بأني شخصٌ بدأ يعتمد على ذاته ولا

يهتم لما يضيفه الآخرون لحياته، شخص يستطيع أن يعيش حُراً مثل (مرعي)، ومهاباً مثل أبي، وغنياً مثل جدِّي ؛ لذا ابتسمت، طويت السكين ووضعتها بامتنان في جيبي، وفي المدرسة صرتُ أخرجها علناً، افتحها أمام زملائي التلاميذ، أفتحها وأنا مُدركٌ تماماً بأنني كنتُ أحرك في نفوسهم صفات التملق والنفاق، وأخلق منهم عيوناً مرعوبة لمعلمي المدرسة ، وجواسيساً مخلصين لمديرها.

فاجأني يوماً المدير بأن استدعاني إلى مكتبه، وضع بين كراساتي ضرفاً صغيراً وقال وهو يتصببُ عرقاً:

- بلِّغ تحياتي للوالد.

خرجت من مكتبه تزأر في نفسي عواصف الفضول، وشيء من الخوف يتأبط قلبي بين الحين والحين ويحاول الاستحواذ به، انتابتني رغبة شديدة في رمي الظرف في أقرب سلَّة مهملات، فلن يكون به أكثر من استدعاء لوالد ي يتضمن سرداً للوقائع التي حملها جهاز مخابرات المدير إليه عني، عرجت على أول سلة مهملات وقعت في مجال بصري، نظرت حولي لأتأكد من خلو الممر الطويل من المراقبة وأخرجت الظرف من بين كراساتي، كُنت على وشكِ أن أرميه في عمق السلَّة حين دغدغت فضولي فكرة أن أنظر في محتواه قبل رميه، أن أعرف ما حمله هؤلاء الجواسيس عني، وما اخترعه خيالهم الحاقد حولي، فضضت الظرف وقرأته، ولشده مفاجأتي لم يكن به ما توقعته،

لم يرد اسمي في أي سطر من وريقات الرسالة الثلاث المتزاحمة الأسطر، كانت كل الكلمات هي فقط استرحامٌ واستجداءَ لأبي ليتدخل بما لديه من مكانة وحظوة عند أهل السُلطة للإفراج عن ابنه – ابن المدير - المُعتقل في سجون طرابلس منذ سنوات بسبب اشتراكه في مظاهرة نظمها بعض الصبية المُغرّر بهم في جامعة قاريونس – على حد تعبيره.

طويت الرسالة وأعدتها إلى حقيبتي يعصر قلبي شيءَ من الندم، بعض الأشخاص مثل الخيالات المخيفة التي تبدو في الظَّلام وحوشاً كاسرة، تتحرك برعب نحونا لتمزق أجسادنا بين أنيابها ومخالبها، حتّى إذا ما أضاء المكان نكتشف بِأنَّ تلك الخيالات هي مجرد قطعة قماش بالية أو كيس نايلون تعبث به كف الريح فوق غصنٍ عنيد، هكذا بدا السيد المدير حين أضاءت رسالته إلى أبي مجاهل عقلي، وأشرعت أبواب السخرية من مخاوفي وهلاوسي التي يرسمها خيالي الطفل، رأيت داخل السيد المدير وقلبه المكتظ بعلب الأماني الفارغة والأحلام المنتهية الصلاحية، رأيت قلقه رياح جنوبية محملة بالرمال والأتربة والغبار تقتلع براعم الفرح في قلبه وتجتث من روحه أغراس البهجة، رأيت الخوف والشوق أسراب جراد تأكل خضار حياته وسنواته الخمسون وتحيلها مجرد خواء، غرابيب سود تنعق فوق قممها غربان الخراب، رأيته إنسان هزيلٌ جداً برغم ضخامة جثته، قزمٌ برغم طوله الفارع، أخرس برغم صوته الجهوري، عبيط برغم شهادته الجامعية

التي يُعلقها خلف مكتبه، إنسان استبد به الفزع حين قرأ في مرآته سنواته الخمسون وهو ما يزال لم يبرأ بعد من حدث وفاة زوجته التي ماتت قبل أسابيع بداء الشوق لأبنها السجين، إنسانٌ لاح له في الأفق موعد تقاعده يقترب حثيثاً، فداس على كبرياءه ومبادئه التي كان يُعلمها لطلابه، داس على كرامته وتشدقه بالتضحية ، علَّق لنفسه مشنقة في ساحة التعليم وقرر أن يستعيد ابنه ولو بأخسَ الطرق وأحقرها.

لا أدري بالتحديد، هل تعاطفت معه فعلاً، أم أنني احتقرته وسقط من توقيري وخوفي؟ كل ما أدريه أنني أخذت الرسالة وحملتها إلى والدي دون أية مشاعر، تناولها والدي، قرأها في صمت وهو يوجه إليّ نظرة اتهام وتهديد، ثُمّ وقف مترنحاً ومزقها فتاتاً صغيرة تناثرت على السجاد الأحمر، وغادر وهو يقول محذراً ومؤنباً:

- إذا أعطاك أحد ما ظرفاً كهذا في المستقبل، لا تأخذه، مزقه أمامه، أو ارمه في وجهه.

(6)

تحركت (آقنوس) نحو الغرب، وبدأ الأفق يبتلع اسكندرونة وأضوائها وجبالها، شعرتُ بالبرد والجوع وانتابتني رغبة في التحرك والبحث عن الطعام والدفء ما دام رفاقي لم يتفقدوا غيابي بعد، لابد أنَّ اليوناني الخبيث أناتولي قد أزاغ عقولهم بخمره المعتقة وأسماكه المشوية اللذيذة بحسب ما روي لي خالي عنها، قال قبل أن يودعنا في حلب:

- سأسافر أنا وزوجاتي وأمكَ عن طريق الجو، أمّا أنتَ والرفاق ستلحقون بِنا عن طريق البحر، بالتأكيد ستكونون أفضل حالاً منَّا لأنكم ستستمتعون بطعام أناتولي البحري الفريد، وخمره القُراح الشافية.

لا أدري حتّى الآن هل ما قاله عن هذا اليوناني حقيقة أم أنَّه كان يقصد التخلص من رفقة أُمِّي ، التي جفلتْ واقشعر بدنها حين سمعت الحديث عن الخمر؟ وصمَّمتْ على مرافقتي إيماناً منها بأنَّها ستمنع الخمر عنِّي ، ستُغلق فمي وتفكيري دونه، وستكسر الكأس التي ستُمد لي بعد أن تقطع اليد التي مدَّتها، وحين حاول خالي إفهامها بِأنَّ تلك

الخمر خمرَ حلال، أباحها الله للمجاهدين في سبيله، وخصّ بها الطيبين الأنقياء لم تقتنع، وقالت في ثقة فقدتها منذ زمن:

- أنتَ وشأنكَ، تشرب خمراً...تشرب سَمّاً..ذاك شأنك..أمّا ابني فلا سلطة لك عليه.

ضحك خالي لقولها حتّى بانت نواجذه، لعله كان سعيداً بلسانها الذي لاحظ تحرره من الاعتقال في الفترة الأخيرة، لعله كان سعيداً بنجاح مخططه في إبعادنا عن خطِّ سيره ، أو أنه كان يسخر من غفلتها، فهي إلى تلك اللحظة تعتقد بِأنَّ ابنها الطِّفل المُبتهج بخطِّ شاربه الخفيف، والشعيرات القليلة التي برزت على ذقنه لم يشرب خمراً ولا أدناها من فيه، كنتُ مشفقاً عليها من أن ينزلق لسانه ويكشف لها سرَي، غير أنَّه اكتفي بتلك القهقهة وبغمزةٍ أرسلها إليَ، ثُمَّ غادر وقال قبل أن يصفق الباب الخارجي خلفه:

- ترافقكما السّلامة إذن.

من سخرية المقادير، وربما عدلها أنَّنا سافرنا قبل خالي وزوجاته، تركناهم في حلب ينتظرون جوازات السفر ووثائقه التي تأخرت عنهم، وانطلقنا في حافلة أقلتنا إلى الحدود السورية التركية عبر منفذ (باب الهوى)، لم نكن بعدها في حاجة إلى تأكيد هوياتنا لأية بوابات أو نقاط حدودية، فقد اجتزنا مسالك أخرى عبر طرق وممرات جبلية،

تتداخل فيها القرى والمواقع، سرنا عدة كيلومترات على الأقدام يحملُ كل مِنَّا مجموعة من الصناديق فوق رأسه.

كان الإجهاد واضحاً على وجه أُمِّي، كانت تلهث وتتصببُ عرقاً، وتعلو وجهها زُرقة بين الحين والآخر، وكلما حاولت أن استفهم منها أو أن أساعدها، تقول لي:

- لا تقلق، أمّكَ ما زالت قوية، ولم تصبح عجوزاً بعد، مجرد دوّار بسيط سيزول بعد قليل.

لم أكن أعرف ما الذي يمكنّني أن أفعله لأجلها، كانت ترفض المساعدة، وترفض التوقف إلى أن غلبها الضعف وبدأ الدوار يثنيها عن المكابرة أكثر، دفعت بالصناديق الثلاث التي كُنتُ أحملها فوق رأسي إلى بقية الرفاق فوزعوها بينهم، ثُمَّ حملت أُمِّي على ظهري رغم احتجاجها ورفضها ، اللذين كان يزيدهما حدَّة تذمّر الرفاق، وشكواهم المستمرة بأنَّها ستسببُ لهم في التأخر، ومن ثُمّ ستفوتهم الباخرة.

كان عليّ التصرف لأحمي كبريائي وكبرياء أُمِّي، اقترحت عليهم بأن يسبقونا، ويتركوننا في مكاننا، غير أنَ حشرجة صدرت من صدر أُمِّي، ولعاب سال منها بلل ياقتي ورقبتي أشاع مشاعر متضاربة في نفوسنا جميعاً.

توقفت والقلق يكاد يقتلني، انزلتُ أُمِّي من على كتفي إلى الأرض بهدوء، وضعتها في ظل شجرة، كانت عيناها جامدتين، وتخرج من فمها رغوة كثيفة من اللعاب، مسحت فمها بطرف كُمَي، أخرجت قنينة ماء وبللتُ لها شفتيها ، غير أنَّهما كانتا شاحبتين وجامدتين، سرى الشحوب فجأة في وجهها وفي كُلِّ جسدها، وارتخى وجهها وابتسمت.

نعم، لقد ابتسمت أُمِّي وهي تلفظ روحها بين يدي، قررت أخيراً أن ترحل إلى العالم الآخر ، تركتني معلقاً في مشنقة الحيرة، تحوطني أسئلة صماء كصخور الصوان لا أمل ظاهر في انبثاق عيون السلام منها، ولا مجال لاجتيازها بغير معجزة.

سرت همهمة بين الرفاق، لعلها كانت ارتياحاً أكثر منه حزناً، نقمتُ عليهم لأنهم كانوا أول من أشعرني في هذا العالم بِأنَّ أُمِّي كانت ثقلاً عليهم، أُمِّي لم تكن ثقلاً في حياتها على أحد، كانت مستسلمة وراضية وتعطي بقدر ما تقدر دون أن تأخذ شيئاً، كُنتُ فرحها الوحيد في غربتها، وكانت لوحي الوحيد الذي اتشبث به دون الغرق، وللأسف لم أقف على حقيقة كل ذلك إلا حين قررنا العودة إلى بنغازي.

- هيا يا شباب، احفروا قبراً.

قالها جوزيف بنبرة لا مبالية عفست على جرحي الندي، وانطلقت وقاحتها دبابيساً غُرزت في قلبي، فطرحتُ رُهابي وخجلي بصرخة أثارت دهشتهم كلهم:

- لا..لن تُدفن أمِّي هنا.

- على رسلكَ يا فتي.

قالها جوزيف وهو يفرد يديه أمامه وتابع:

- إذا كُنتَ ترغب في العودة بجثتها، أو البقاء هنا فلك ما أردت ، لن يجبرك أحدٌ على مرافقتنا.

اعترض أبو فارس بكثير من القلق:

- لن يصل الأمر إلى هذا الحدِّ يا يوسف.

ثُمَّ وهو يقف بيننا ويرفع ذراعيه في الهواء وكأنه حكمٌ في حلبة ملاكمة ينهي إحدى الجولات:

- حافظا على هدوئكما رجاءَ.

كرهت جوزيف في تلك اللحظة أكثر من أي وقت، كرهتُ وقاحته واستهانته بالآخرين التي تقطُر من كُلِّ حركاته وسكناته، من صمته

وكلامه، كرهتُ تعاليه الدائم وكأنه آتٍ من كوكب آخر غير الأرض، كرهت تبجحه الفارغ، وتباهيه الكذوب، كرهت تسلقه المشمئز، وتلونه المقرف ، وأمام جبال الكراهية تلك تقزّم وجلي وخوفي، أو ربما تعملقتُ في تلك اللحظة حتّى لم أعد أراه، ألحت عليّ أمنية في صفعه صفعة ترتج لها أرجاء الأرض، فاجتزتُ أبا فارس، اقتربت من جوزيف وحققت أمنيتي حتّى خُيل إليّ بِأنَّ الشَّمس قد اختبأت مرعوبة خلف سحابة، صدحت كفِّي على صفحة خده الناعم، وتركت آثارها خطوطاً ارجوانية على بشرته البيضاء الناصعة.

غمرني احساس متضارب من الارتياح والقلق، ممزوج بالرضا وعدمه، بالعظمة والرعب، صرتُ أرتعش كُلي، حماساً أو خوفاً لا أدري بالتحديد، كان هو- وكل الرفاق – ينظرون إليّ مدهوشين، معهم حق فما كانوا يتصورون أن الحمل الوديع يمكن أن يصبح يوماً أسداً في أقل من ثانية ، أنا نفسي كنتُ في زاوية ما في نفسي مدهوشاً مِنّي، فما كنتُ أتصور أنني أملك كل تلك الجرأة والاندفاع.

صوتٌ في داخلي أعلن حالة نفير، فأنا أعرف بِأنَّ جوزيف نمر ضارٍ ستثيره صفعتي ، ويهجم عليّ بمخالبه وأنيابه، وأعتقد بِأنَّ أحداً لن يجرؤ على الوقوف في طريقه، لا أبا فارس ولا غيره، وسطعت في سماء خوفي حكمة بأن يجب أن أسيطر على بقايا خوفي وأستعد لمواجهته، ولدهشتي لم يفعل جوزيف ما كنتُ أتوقع أن يفعله، اكتفى بالنظر

طويلاً في عيني، نظرة غامضة يزيد من غبشها لون حدقتيه الرمادي الذي يصوره أحياناً في عيني مثل رجل آلي، يتحرك ويفكر ويتصرف بجهاز تحكم عن بعد، لم يفعل جوزيف ما توقعت أن يفعله، لم يهجم عليّ ولو بكلمة، بل إنه ابتسم ابتسامة واسعة، أسقط يديه إلى جانبه التي كان يُهدئ ببرودتها لهيب خده، واقترب فارداً يديه ليعانقني، جفلتُ منه وتصورته يحفر فخّاً لأقع فيه، لم أسمح له بمعانقتي، فلم يزده ذلك سوى ابتساماً.

فرقع بأصابعه في الهواء، فتقدم أبو فارس وأخرج قنينة ماء من جيب سرواله الفضفاض، فتحها وقربها من فمي قائلاً:

- هيا، اشرب.

- ما هذا؟

- لا شيء، جرعة ماء لتهدئ أعصابكَ.

دفعتها بعيداً عن فمي بعناد طفل، فأحاط رقبتي بذرعه، وبعناد أمٍ قلقة أجبرني على ابتلاع جرعة دلقها في فمي، كان أبو فارس برغم ضآلة جسده يملك قوة رهيبة، لم أستطع بعد مقاومتها أو التخلص منها، وفي الحال شعرت بالدوران، سرى خدرٌ لذيذ في جسدي كله، تخلصت من توتري كله، وانقشعت الرعشة من أطرافي، نسيت غضبي

ورفضي وحتى حزني، وكأن أحدهم قد قام بتغليف عقلي بغلاف من الحُمق المُقوى ، رحتُ أتأملهم ببلاهة وهم يحفرون القبر ويضعون فيه جسد أُمِّي، هكذا دون أن يغسلوها، قالوا بأنَّها شهيدة، والشهيد لا يُغسّل، عانقت التراب على قبرها، واطلقتُ عقال دموعي دون أن أعي تماماً لما كنتُ أبكي؟ ومن تلك التي كنتُ أبكي لأجلها؟ كنت أسمعهم وهم يحوقلون ويستنكرون تصرفاتي، أمرني أحدهم، وأعتقد بِأنَّهُ كان جوزيف – فهو الوحيد الذي بدا بِأنَّهُ يستطيع أن يعطي أوامراً، أمرني بأن أقرأ الفاتحة على روحها بدلاً من البكاء مثل النساء، بحثت – ممتثلاً – عن الفاتحة في ذاكرتي، فلم أعثر لها على أثر، تاهت حروفها التي كانت تقع على قلبي مثل بلسم كلما رددتها في السابق، مكانها الذي نُقشت فيه ورسخت مذ كُنتُ في الخامسة من عمري مجرد فراغ فاغرَ فاهه، كأن لصّا قد مدَّ يده إلى ذاكرتي، وفي غفلةٍ مني اقتلعها من جذورها، رحتُ أردد:

- الفاتحة...الفاتحة.. الفـ...

بعض الأشياء لا تدرك أرواحنا مدى قيمتها إلا حين ندرك بأننا فقدناها وإلى الأبد، هكذا أصبح جسد أُمِّي الذي توارى تحت الثرى أكسير حياة فقدت الطُرق التي تؤدي إليه، وأصبحت روحها التي أشعر بها ما تزال ساخنة ترفرف في المكان قلقاً، أصبحت منارتي التي

لن أعثر لها على أثر، وأصبح قلبها المُثخن بالأوجاع وسادتي التي لن أتوسدها بعد الآن وإلى الأبد.

لا أذكر كيف تركت قبرها بعد ذلك، لكن.. حين أفقتُ من صدمتي وجدتُ نفسي محشوراً بين اثنين من الرفاق في الكرسي الخلفي لحافلة أخرى، كانت الشَّمس قد مالت إلى جهة الغرب فرسمت ظل الحافلة المسرعة على الطريق جهة الشرق، طويلاً مضحكاً كرسم كاريكاتيري مضحك، يظهر ويختفي، يقترب ويبتعد، ويمتد ساكناً طويلاً لساعات، سارت الحافلة في طرق وممرات حتّى لفظتنا أخيراً في بقعة نائية على شواطئ اسكندرونة.

(7)

في شوارع (الصّابري) ذقتُ طعم أول سيجارة، كانت مرتوية بالدقيق والزيت، فصاحبها الذي رماها نصف منتهية على مرأى من عقلي المتربص، هو عمي حسين السنفاز، رأيته يرميها قريباً على الأرض ، غير بعيدٍ من عربته التي تحمل عدَّة عمله، بعد أن سقط أغلب رمادها في عجينه وزيته، انتهزت فرصة حديثه مع أحد الزبائن، التقطت عقب سيجارته وركضت إلى صديقي (علي) الذي كان يسكن في نفس العمارة التي أسكن فيها:

- حصلتُ عليها.

قلتُ بفرح، نظر إلى عينيَ مستفسراً فأخرجت له العقب من جيبي ببطيء وكأنه قطعة ماس أخاف عليها الكسر أو السرقة، أشرق وجهه بالفرح، ثُمّ تلبد سريعاً بالقلق والخوف، أمسكني من يدي وراح يجرني خلفة عبر درجات السلم نزولاً.

تحت آخر الدرج جلسنا واجمين نتساءل: كيف سنشعلها؟ وهل حقاً سنجد الشجاعة لرشفها؟ ماذا لو اختنقنا بدخانها، هل سيكتشف أهلنا فعلتنا؟.

- ماذا تفعلان هنا؟

صعقنا صوت (مرعي)، وهو يطل علينا برأسه الكبيرة، وشعره المنكوش المهمل.

- أهذه سيجارة؟

قال وهو يقترب منا غير مكترث بوقفتنا المطورة بالفزع، المكبلة بالخوف، قطف عقب السيجارة من يدي وكأنه فاتح ينتزع مفتاح مدينة، ابتسم وسأل بانتصار ودهشة:

- تدخنان؟

- لم نفعل، صدقنا نحـ ـ

كُنَّا نرتجف ونقاوم البكاء المُلحّ، لم يتركنا نُؤلف كذبة ننجو بها، قاطعنا سائلاً في رقَّة:

- أتريدان أن أشعلها لكما؟

ومض بريق في عينيه وبدا لطيفاً وودوداً، نظرنا إلى بعضنا البعض، خطر ببالي بِأنَّ سؤاله يمكن أن يكون فخَّاً، يمكن أن يكون استدراجاً للاعتراف ومن ثُمّ يشي بنا إلى الكبار المستعدين دائماً بالعصا والفلقة،

والحبس والتعذيب، لكن من سيصدق فتاً متشرداً مثل (مرعي)، يعيش على مدِّ يده سواء بالسؤال أو بالسرقة؟ سنقلب الطاولة عليه ونقول بِأَنَّهُ يكذب علينا وأنه أمرنا أن نسرق له المال من أهلنا، وحين رفضنا دبر لنا مكيدة.

دُهشت من نفسي ومن خيالي وأنا أرتب في ذهني الاحتمالات والاحتياطات، وغمرني شيء من الارتياح، ليس القوي بالحجم والعضلات، وإنما بالذكاء، لعبة توم وجيري الدائمة، الأمر يتطلب فقط شيء من الثقة في القدرة، لكن كيف سأخبر (علي) بما خطر على بالي؟.

كنتُ أفكر في طريقة ألفت بها نظر (علي) إليّ حتّى ألمح له، أو أهمز له بشيء حين أعاد (مرعي) سؤاله:

- أتريدان أن أشعل لكما السيجارة؟

(مرعي) من الأشخاص الذي لا يمكن أن تتوقع ردة فعلهم أو تخمن الخطوة التّالية التي سيقدمون عليها، وهذا ما أثبته لي حين رمى العقب على الأرض وسحقه بحذائه الضخم، نظر إلى كلينا طويلاً ثُمَّ مدَّ يده إلى جيبه وأخرج علبة سجائر جديدة، فتحها وأخذ واحدة وضعها بين شفتيه وأشعلها، سحب منها نفساً عميقاً حتّى توهج رأسها بشدة، وضعها بين سبابته وإبهامه ثُمَّ مدَّها إليّ قائلاً:

- هذه تُسمى سيجارة، وليست ذلك العقب القذر.. خُذْ.

مددت إليه أصابعاً مرتعشة، واستلمت السيجارة بين سبابتي وإبهامي، بينما أخرج (مرعي) سيجارة أخرى وفعل بها ما فعله بالأولى، ناولها إلى رفيقي (علي)، ثُمّ غادرنا بسرعة وكأنه نادل ملأ الطاولة لزبائنه بمختلف الأطايب وغادرهم احتراماً للخصوصية، وهو يقول:

- إذا احتجتما إلى سجائر أخرى لا تلتقطاها من على الأرض، عيب عليكما إن فعلتما عظيم، الرجال لا تفعل ذلك، تعالا إليّ وخذا ما تشاءان دون مقابل.

تذكرت موقفاً حدث قبل هذه الحادثة بأيام، فقد رأيت جدِّي أمام العمارة يصفع (مرعي) صفعة قوية كادت أن تذهب بأسنانه حين سأله – هذا الأخير -أن يمنحه مالاً لأنَّه جائع ويريد أن يشتري الخبز، كُنتُ عائداً مع أبي وأمي من رحلة كان المقصود منها التسوق، غير أنها ألغيت بعد أن تشابكا في السيارة في مُشادة كلامية لم تخلُ من السِباب والشتائم، علّقت أُمِّي بالبصاق على الأرض أمام جدِّي، وصعدت إلى الشقة، أمّا أبي فقد اكتفى بنهر (مرعي) وتقريعه بشدة قائلاً:

- عيب يا (مرعي)...عيب، ما كان أبوكَ امرأ سوء ولا كانت أمكَ بغيا، وا لدكَ أعظم بروووووفسور علوم اقتصادية، جعل من نفسه آلة تدريس تركض بين الجامعات الليبية ليوفر لك الحياة الكريمة، وأمكَ أعظم مديرة مدرسة، فلماذا تفعل بهما هذا؟.

الحقيقة بأني لم أفهم معنى كلمة (بروووووفسور) التي مدَّها أبي فوق خطٍّ طويل من السخرية، غير أني فهمت معنى كلمة (مديرة) التي نطقها بكثير من الخجل عرفت - فيما بعد - أن سببه هو صلة القرابة التي تربط أبي بتلك المديرة، وتصورتها مثل مدير مدرستنا، ضخمة الجثة، غاضبة الملامح، جهورية الصوت، صاعقة النظرات، تُمضي وقتها في الزعيق وضرب ثدييها الضخمين مثل غوريلا تُحاصرها الوحدة، على شفتها العليا مربع صغير من الشعر مثل شارب هتلر، ومثله تُغطي جبهتها البارزة والصلعة في مقدمة رأسها بشعيرات مُرغمة على تغيير مسارها، ومثبتة بالزيت والصابون.

- أنت شاب قوي الجسم، سليم العقل... اذهب وابحث لك عن عمل تعيش منه، لا ينبغي أن تمد يدك للناس هكذا.

أكمل والدي وكأنه يعتذر عن والديّ (مرعي) وتساءلت وأنا أنظر إلى أبي وجدي نظرة ازدراء:هما يحملان من المال ما تنوء بحشوه الخزائن العظام، ويبخلان على هذا المسكين بدراهم يشتري بها خبزاً؟.

خلَّفت تجربة السيجارة الأولى ذكرى سيئة في نفسينا، أنا و(علي)، فقد ظللنا نسعل حتّى دمعت أعيننا وكدنا نختنق، صُمتُ بعدها عن السجائر فترة أسبوع مُرغماً لا بطل؛ وذلك لأنني قضيت ذاك الأسبوع عند جدِّي، وحين عُدت إلى شقتنا أخبرني (علي) بِأنَّ (مرعي) بحث عني وعنه، وأنه سخر من جبننا وادعى بِأنَّهُ سمع سعالنا وحكم علينا بأننا لسنا برجال، ثُمَّ تحدانا أن نعاود الكرّة.

وعاودناها مُثنى وثُلاث ورباع، حتّى أصبتُ بالَّنهم إلى السجائر، لا يهدأ لي بال إلا إذا أشعلت واحدة في فمي، بينما أصبح (علي) مدخنة حقيقة، لا ينتهي في فمه سيجار إلا وكان قد أشعل به سيجاراً آخر، كما أنه لازم (مرعي)، ينشل نيابة عنه جيوب العابرين، ويسرق ما يغريه داخل السيارات والمنازل.

كانت دائماً لي حصتي التي يحتفظان بها لي إلى أن اجتمع بهما، على أمل أن أتمكن من نيل حريتي وألتحق بهما قريباً، غير أن الظروف شاءت غير ذلك، وابعدتني عنهما مسافات طويلة ولمدة تتجاوز الثلاثة عشر عاماً .

كان (علي) يكبرني بثلاث سنوات، أطول قامة وأشدَّ هزالاً، في عينيه العسليتين صفاء عجيب كان يشدني إليهما فلا أملُّ النظر فيهما، وكان أكثر جرأة مني وأكثر حزماً، صار يغيب عن البيت ويرافق (مرعي) في أغلب الأحيان، ساعده على ذلك بِأنَّ أسرته كانت كثيرة العدد يتراص

أفرادها الثمانية عشر داخل شقة صغيرة مكونة من غرفتين، فكان غيابه غير ملاحظ في أغلب الأحوال، وإن لاحظته أمه أو أبيه بره لهما بدعوى بحثه عن عمل، فكان والده يبكي من الفرح أمام رجولة (علي) الصغير، وكانت أمه تُثني عليه وتُفاخر به إخوته الكبار الذي يتشابكون حولها لا عمل ولا دراسة.

اكتشفت أمه بِأَنَّهُ مُدخن من رائحة ملابسه وأخبرت أبيه فكان ما يحضره إلى البيت من مال ومؤن يجعلهما يتغاضيان عن جريمته الصّغيرة، بل ويبررانها قائلين:

- التدخين للرجال ... الحمد لله بأن ولدنا يُدخن فقط، ولا يرتكبُ أياً من الجرائم الأخلاقية الأخرى.

حين قررت أن أهجر بيت جدِّي وعُدتُ إلى شقتنا، توثقت علاقتي بعلي وبمرعي أكثر ، كانت علاقتي بعلي أكثر قرباً، فإضافة إلى أن باب شقته يقع في مواجهة باب شقتي، فنحن زميلان في ذات المدرسة وإن لم نكن في ذات الصفِّ، كُنا نسير معاً في الصّباح إليها ونعود معاً في الظهيرة منها ، ومعاً بدأنا ننزوي بعيداً عنها نُدخن أو ندحرج الأحاديث الفارغة على قارعة هروبنا المتزايد، كُنتُ أحب (علي) وهو يحبني كثيراً، كان في بعض الأحيان يتحدث عن عائلته بكثير من الألم، عن فقرهم وشجارهم المستمر، عن جنون والدته وعقوق اخوته، عن

ذاك الكم الهائل من الكراهية الذي يتداولونه مُعتقاً بينهم كلما قاموا أو قعدوا، وأحدثه عن عائلتي بذات الألم، وذات الأحاديث، ثُمَّ ينظمّ إلينا (مرعي) أو ننظمّ إليه ليؤكد لنا بحديثه بِأنَّ ذاك هو حال كل العوائل في بنغازي.

توثقت عُرى الصداقة بيننا وبين (مرعي) خاصّة حين فهمت صلة القرابة بينه وبين أبي، عرفت أن أمه المديرة تكون ابنة خالة أبي ١، وأن أبي كان يُكن لها شعوراً خاصاً غامضاً، أمّا جدِّي فلم يكن يحبها على الإطلاق ولا أدري لماذا؟ ربما بسبب مشاكله الاجتماعية مع عائلة زوجته الراحلة.

كُنا نمضي الصّباح نتسكع في الشوارع البعيدة عن (الصّابري)، تلك التي لا يعرفنا فيها أحد، ندخن بحرية ونأكل مما نشاء، قد نعرج على البحر ونصطاد بعض السمك، نوقد النار على الرمل ونشويه هناك نأكله بشراهة أو نرمي معظمه للكلاب والقطط بحسب حالة الجوع التي نحن عليها، كان (علي) ماهراً في اصطياد السمك بطريقة الدببة، يتسمر مثل تمثال منحياً فوق الماء الضحل، واضعا يديه مفتوحتين في الماء، وحين تمرّ سمكة في الجوار كان يقبض عليها بسرعة خارقة، لم تنجَ من قبضتيه سمكة وضعها حظها السيء في الجوار.

كنتُ أنا ومرعي نشاكسه ونحاول إفساد بطولاته عليه، كأن نصرخ أو نصفِّر أو حتّى نرمي الحجارة في الماء أو نوجهها إلى أهداف

على جسمه، لم يكن يغضب منا على الإطلاق، كان يعتبر كل ما نقوم به من أعمال تخريبية ومعوقات مجرد تحديات تمتحن إرادته وتصميمه؛ لذا لم يكن يستأثر بصيده لوحده، كان يشاركنا فرحة ونصره.

قريباً من منتصف النهار كُنّا نحثُّ الخطى نحو بيوتنا، وكأننا فعلاً كُنّا في المدرسة، في بعض الأحيان كان (مرعي) يعرج بنا إلى أماكن جانبية، تحت جسر أو بين أشجار حديقة عامة شبه خاوية، ويدعونا إلى حفلة استعراض لأعضائنا الذكرية، فنتلذذ بلمسها وتدليكها، ثُمّ نمضي محتقني الوجوه إثارة ونشوى ونكافأ أنفسنا بالعصير البارد أو قطع الشوكلاه اللذيذة على حساب (مرعي) في كُلِّ الأحوال.

لسوء حظِّي أو لحسنه، اكتشف أبي أمر هروبي من المدرسة، ولا أدري كيف تمّ له ذلك؟ وحبسني في البيت بعد (طريحة) ملتهبة اكتويت بها من حزامه العريض الذي لا يبيد أبداً، أما (علي) فلم يعبأ بأمره أحد، وحين أخبر أبي والده بالأمر متهماً (علي) بإفسادي، وأنه كان السبب في إغراء طفل صغير (هو أنا) ببعض الحلوى ليضيع مستقبله، تقبل والده الأمر وكأنه نتيجة كان ينتظرها:

- إذا جاورت الكلب الأجرب لابد بأن يُصيبكَ الجرب.

هكذا علَّق والد علي على الموضوع كما أخبرني (علي) فيما بعد، قال بِأنَّ والده لم يضربه ولا لامه على شيء، بل على العكس كان يراه ضحية للفساد الذي ينتشر في البلاد، مثله مثل أبيه الذي طُرد من عمله بسبب أنه سبّ النظام.

لاحقاً رأى والد (علي) في موضوع تركه للمدرسة تخفيفاً للمصاريف، فخسرنا رفقتنا في الطريق والهروب، واختفى علي وكأنه قد حصل على عمل حقيقي، كُنت حين أسأل والدته عنه نهاراً تقول لي أنه ذهب للعمل، وفي الليل يخبرني والده بازدراء واضح: بِأنَّهُ لم يعد من العمل بعد، كانا يقولان ذلك وكأنهما يعايراني بعطلي عن العمل، ولم أكن أهتم، كُنتُ مشتاقاً إليه وإلى صحبته، رأيته مرة من شرفتي عائداً يجر رجليه جراً وكأنه قد سقط من فوق جسر أو داسته سيارة، هرعت إلى الباب لاستقبله عند الدرج، كان دامع العين متجهم الملامح، وحين اقتربت لأسلم عليه دفعني بعنف، دخل بيته، وقبل أن يصفق الباب خلفه بعنف لاحظت أن بنطلونه كان مبللاً وتفوح منه رائحة بول مركز.

اختفى بعدها من جديد فاشتعل قلقي وجزعي، ثُمّ ظهر بعد شهرين تقريباً (علياً) آخر غير الذي كُنتُ أعرفه، صار شرساً يثور لأقل سبب، ويهجم على من يثيره بعنف، ويضربه بقسوة، اختفى الصفاء الذي كان يسكن عينيه ، والقوّة التي كانت تكلل تصرفاته، وفي أوقات

هدوئه يصير مائعاً رخواً مثل فتاة ليل، وقبل أن أغادر ليبيا مع أُمِّي بأيام قليلة جاءت الشرطة بأرتال كبيرة، ملأت أصوات أبواقهم الآذان، رأيتهم يقتحمون بيته، ثُمّ يقتادونه شبه غائب عن الحياة، عينيه شاردتين، ولعاب فمه يتساقط خيوطاً من فمه، أذكر أنه نظر إليّ نظرة طويلة وكأنه يحاول أن يتذكرني، وبأني ارتدعت رعباً، وبكيت عجزاً عن أن أفكَّ أسره، سمعت أبي يخبر أُمِّي بِأنَّ تهمة (علي) هي اغتصاب عدد من الأطفال من الحي، بعد أن أغرى كل منهم على حدة بالحلوى والألعاب، وللحقيقة لم أفهم - حينها - ما كان يعني ذلك بالتحديد.

(8)

عندما تركنا الموصل اتجهنا إلى الرّقة، غير أن خالي ولأسباب لم يوضحها شدَّ بنا الرحال من جديد إلى حلب، هناك أسكننا بيتاً مشتركاً أنا وأمي وهو وزوجاته الأربع، البيت كان فسيحاً وواسعاً ويحوي سبع غرف ، لم نكن أنا وخالي نعود إليه إلا مساءَ، كان خالي يصرّ على أن أظلَّ بقربه، ألازمه مثل ظلِّه، خاصّة بعد مقتل صديقي الوحيد رشيد، ولا عجب في ذلك فخالي يرى فيّ شخصاً بلا أساسات سهل الانقياد والانصياع وراء أية تيارات يمكن أن تحملني بعنف أو انسياب بعيداً عن ضفافه، كان دائم القول:

- بين ضلوعكَ يا زياد قلب مثل قلب أمكَ.

بالطبع كان يقصد بِأنَّ قلبي قلب امرأة، وبأنني لا أكنَّ لعالم الرجال بصِلة، كذلك كان الجميع يقلد خالي في ذات المعاملة، وحده رشيد أشعرني بأنني رجل، وذكي، ويمكن الاعتماد عليّ، كان على الأقل يتيح لي فرصة للكلام، للتعبير عن آرائي، يمنحني مساحة لأتكلم، لأسأل، لأرد، حتّى ولو كان الكلام والأسئلة والردود هذراً.

رشيد شاب عراقي جميل النفس والمظهر، طيبٌ دون سذاجة وطموح دون عُقدٍ نفسية، كان قوي البَنية مفتول العضلات، لديه نظرة صقر، والتفاتة ثعلب، كان ذكياً ويداه من ذهب، ماهرَ في كل شيء، في غزل خوص النخيل وصناعة أشياء منه مثل السلال والكراسي، في حفر خشب الزيتون وصناعة الأواني والكؤوس، في البناء، في الطبخ، في الحلاقة، في صناعة الملابس، مهاراته كثيرة ولا تُعد، متعلم ومثقف إلى أبعد حدود الثقافة، لكن أكثر شيء يجيده هو عالم الحاسوب وكل ما يتصل به، وبه بدأ في عملية إعادة تأسيس لي.

الإنسان مفطورٌ على التعلم، حتّى ولو لم يقصد أن يتعلم، يظلُّ عقله يستقبل الأفكار والمعلومات، ويتشربها كما تتشرب الأرض الظمأى الماء، وكأي إنسان لم أتوقف يوماً عن التعلم، تعلمت من أمي، ومن خالي، من الجماعة، ومن رشيد، ومن الإنترنت.

البعض يعتقد بأن ذلك شيء جيد، أمّا أنا فلم أعد اعتبره كذلك، لأن التعليم مثله مثل البناء الشاهق، لابد بأن تكون له أساسات، وخريطة، وهدف، ولابد بأن يمرّ بمراحل، ويخضع للتقييم بين الفينة والفينة؛ للتأكد من جودته وصلابته، وحين تفشل المدرسة في منحكَ ذاك الأساس ، فإن أي وسيلة أخرى يمكن أن تكون مدرستكَ المُثلى، وأي عابر يمكن أن يكون مدرسكَ المثالي، ولن تعرف أبداً إذا ما كانت تلك المدرسة الجديدة على حقٍّ أم على ظلال، خاصة إذا ما كان المعلمون

الجدد أذكياء لدرجة مخيفة، ومؤمنو ن جداً بأنكَ مجرد صفحة بيضاء يخطُّ ون عليها ما يشاؤون، وأنا كنتُ صفحة بيضاء للجميع، كلٌّ يخطُّ عليها علامته، بدءَ من أمّي وخالي، إلى رشيد الذي كان يُحمّل الكتب المختلفة، ويشوقني إلى قراءتها.

قرأت الكثير وأكثر ما قرأت: الروايات الرومانسية، حتّى أنّني أدمنتها، وأصبحت القراءة والانترنت والشرب والمخدرات وصحبة رشيد هي ايقونات سعادة قلبي الأربعة، لكنني كنتُ أخبئ ذلك، خاصة سعادتي بالإنترنت وصحبة رشيد، خبئتُ سعادتي كما خبئت بواعثها، لم أخبر حتّى أمي، فالفترة التي قضيتها هنا علمتني أشياء كثيرة، لعل أهمها: أن كل ما يمكن أن يفتح مجالاً للأسئلة والتفكير مرفوض هنا، وهو ردّة وحرام، لا شيء هنا غير جسور ممدودة نحو الموت، لا شيء يُتلى هنا غير مدائح الكراهية والنفور من الحياة، ولا كُتب تُداول هنا غير الكتب التي تدعو إلى القتل والذبح والحرق والبَغض.

كان لقاؤنا- أنا ورشيد- صدفة أثناء التدريب، تحادثنا وارتاح أحدنا للأخر، ثُمّ تكررت لقاءاتنا، فعرّفني على عالم الإنترنت، علمني كيف ألج إليه، وكيف أتعامل معه، بل وكيف أسيطر وأتحايل عليه؟ حتّى صرتُ أكثر منه مهارة وهو ما اعترف به حين نجحت في هكر بعض المواقع التي استحالت عليه هو، وكان قطع رأسه بتهمة الجاسوسية صدمة حقيقية لي، لم أصدق أن رشيد يمكن أن يكون عيناً

لصالح الجيش العراقي، ولا عيناً لأحد، كنتُ مقتنعاً بِأنَّ الجماعة كانوا يغارون منه، من نجاحه ومهارته فدبروا له مكيدة، خاصّة حين تفوق عليهم في كُلِّ شيء .

مستغلاً حالة من المزاج الرائق لطالما كانت تنتاب خالي بين الفينة والأخرى، سألته يوماً عن السبب الحقيقي الذي من أجله قُتل رشيد، فأنا لن أصدق أبداً بأنه كان جساساً.

نظرة إليّ نظرة من تعكر صفو مزاجه، ثم ضمّ أصابع يده اليمني إلى بعضها وطرق بها على رأسه قائلاً:

- هنا مسكن الشيطان، رشيد لم يحكم وصْدَ أبواب عقله؛ لذا كان يجب أن يُقطع رأسه.

لم أبذل جهداً في وصد أبواب عقلي بعد حديثنا ذاك، فقد ظلَّت كلماته تنفخ النار على زُبر الحديد الذي تراكم فوق أبواب عقلي، وتصبَّ فوقه قِطرا، حتَّى تساوت حياة رشيد وموته في نظري.

كان مقتل رشيد علامة تحديد مسارٍ بالنسبة لي، فأخفيت 90% من مهاراتي في عالم الحاسوب والانترنت التي تعلمتها منه، أظهرت للجماعة ولخالي القليل الذي مكنني من الاحتفاظ بالحاسوب وجهاز الاتصال بالإنترنت، والفوز بالإشراف على صفحة أخبار الجماعة،

وصرت أتمتع بعالم الإنترنت لوحدي، وأدتُ كل رغبة في المعرفة أو أي صلَّة بها، أدعيت الحمق والسذاجة والجهل، حتّى وصلتُ إلى مرحلة صدقتُ فيها أنَّني كذلك.

ثُمَّ ظهرت أعراضاً غامضة على جسد أُمِّي، طفحٌ غريب على جلدها، بقع كبيرة وداكنة، سوداء وبنية وعنابية اللون، وحمى وحرارة تعلو تهبط، والتهابات لا تتراجع في الجهاز التنفسي تظلُ تضيق أنفاسها وتثير السعال في حنجرتها.

كان خالي يحمل لها في جعبته أمر شفوي يعفيها من الجهاد، خُيِّل إلي أنني رأيت طيف ابتسامة يرفرف على شفتيها ويلتمع في عينيها حين سمعت ذلك، لم ينس خالي أن يُعبر عن أسفه عن عدم إمكانية فحص الطبيب لها، مؤكداً عبارات الأمير التي رددها بِأنَّ الصبر على الداء من صالح الأعمال، ومن يترفع عن علاج البشر تعالجه الملائكة، طلب منها – بأمر الأمير أيضاً - أن تلزم بيتها ولا تخرج للشمس، وأن تدهن جسدها بالزيت والخل صباحاً مساءً، ولم ينس خالي أن يزيد على صيغة الفرمان عبارة وجهها لي:

- عليكَ أن تُلازم أمكَ.

- لم استغرب موقفه فلطالما رأى خالي في شخصي فتاً غِرّاً لا يستطيع تحمل مسئوليات الجماعة، ولا يستطيع مفارقة أمه ، ظلَّ يُضرم في قلبي الحقد نحوه كلما ردد – وحدنا أو معنا أحد:

- ما تزال صغيراً يا بُني.

السخرية مِنِّي لم تكن تتوج كلماته فقط، بل كانت تنضح من عينيه أيضاً وهو يراقب بابتسامة غامضة الشعيرات المتجعدة المتناثرة فوق شاربي أو على ذقني، أو وهو يُنصتُ بضحكة مكبوتة إلى صوتي الأجشِّ الذي يشبه في رأيه نهيق الحمار، كُنت أقمع غضبي أمامه، وأكبح ردَّة فعلي التي لم أتصوّر ما يمكن أن يكون حجمها أو شكلها.

كانت كراهيتي له تتراكم في داخلي، يوماً بعد يوم، وموقفاً بعد آخر ، كان من الممكن أن تتحول تلك الكراهية إلى مارد متوحش يُدمر في طريق هيجانه القلوب الخضراء واليابسة على حدٍّ سواء، غير أني كُنت أذكى بذلك بكثير، لم أسمح لغضبي من خالي وكراهيتي له بأن تتحولا في داخلي إلى وحشٍ كاسر، بل عملتُ على تشكيلهما وصياغتهما إلى شياطين صغيرة، أنفخ فيها من عمري الذي قضيته في الظِلِّ، شياطين شفافة تتحرك في حياة خالي وحول منابع سعادته بتؤدة وبخفَّة واستمرار مثل حشرات النملِ النهمة، وتسرق منه السكر، شياطين لا يراها أو يُحسّ بوجودها غيري ، تماماً مثل داء السُكري الذي رأيتُ أعراضه واضحة منذ زمنٍ على جسد خالي، في هزاله المستمر

وسقوط أسنانه المتواصل، ونوبات التعرق والارتعاش، وتلك الدوخة الـتي تُهدد بإسقاطه في حالة إغماء، تأكدت من العمّ (Google) بِأنَّ تلك ا لأعراض التي كان يُعاني منها خالي هي أعراض سُكري، ولم أخبره، تركت شياطيني الصّغيرة ترتدي جُبب القُضاة، تعتلي منصّة الحكم في عقلي، وتصدر أمرها بعقد لساني ومصادرة أي قرار متهور يمكن أن يحذره، استسلمت لعدلها، ورحتُ أراقب داء السكري بنشوةٍ غريبة وهو ينخر صحته شيئاً فشيئاً دون أن يُدرك هو بِأنَّ حياته قد كانت قيد المُصادرة.

لأول مرّة لا أقابل قرار الاستبعاد والنفي الذي أصدره خالي بحقي بالاعتراض المقموع أو الكره المكبوت، كان الأمر أشبه بهدية هذه المرّة، وجدت في ذلك فرصة لأخلو إلى عالم الإنترنت الذي تفوقت في وسائله من اتصال وإدارة مواقع وهكر وغير ذلك، كانت وسيلتي في البداية هاتفي الخاص، ثُمّ الحاسوب الخاص برشيد والذي كان أمانة عندي قبل أن يُقتل، واحتفظت به بعد وفاته بموافقة خالي، فكنت أتواصل مع أناس كثيرين، أتبادل مع بعضهم المعلومات والأغاني، والصور والمقاطع الفاضحة، والنكات الجيدة والبذيئة، كان الانترنت عالمي السرِي الذي لا يدري بدخولي إليه أحد، ولا يعرف أحد ممن ألتقيهم عبره اسمي الحقيقي أو مقصدي من الحياة.

استمتعت بالحياة في عالم الانترنت وسط مجموعة من البشر هم أشبه بالجهلة، لم يكن يقلقني منهم سوى جوزيف الذي كُنت حذراً منه أشد الحذر ولم أطلعه على وجود الحاسوب معي؛ لذا غمرني شعور بالارتياح حين طلب مني خالي أن ألازم أُمِّي، وجدتُ نفسي أربت على كتفه وهو يغادر بيتنا مع زوجاته الأربع:

- اعتن بصحتك يا خال.

خُيّل إليّ بأني رأيت دمعة تترقرق في عينيه، فتحت الباب الخارجي له فخرج تتبع ه زوجاته وهُنَّ متفلحات بالسواد، كانت سميرة تتلكأ في الخروج، وتتعمد بأن تكون الأخيرة في الصفِّ، غزاني عطر أنفاسها وهي تمرّ أمامي، تَعمدتْ أن تقترب وتلمس يدي ومن ثُمَّ تدس ورقة صغيرة فيها، صعقني ملمس أصابعها، رفعتُ عيني إلي خمارها الذي كان يُغطي وجهها، فقرأتُ رُغماً عن سواده وكثافة طبقاته العازلة ابتسامتها الساحرة، وثملتُ من نظرة عينيها المُسكرة.

دسست الورقة في جيبي وأنا أعرف تماماً ما كُتب فيها، أغلقت الباب وعُدتُ إلى الداخل.

دخلت البيت، فتحت الباب بهدوء فلم تنتبه أُمِّي لدخولي، سمعتها ترنم بكلمات أغنية رسخت في قرار ذاكرتي، حفظتها عن ظهر

قلب؛ لأنها كانت الأغنية التي نسمعها من الإذاعة المدرسية خلال فترة الاستراحة، ونرددها بوعي أو بدونه:

بلدي وما بلدي سوى حُقَقِ الطيوبْ
ومواقعِ الأقدامِ للشَّمْسِ اللعوبْ
أيامَ كانت طفلةَ الدُّنيا الطروبْ
و الحبّ والأشعارُ في بلدي دروبْ
والياسمينُ يكادُ من وَلهٍ يَذُوْبُ ولا يتوبْ

لأول مرّة أسمعها تغنّي، ولأول مرّة اكتشف بأنَّها تملك صوتاً جميلاً صافياً ومنعشاً، صوتاً يُلامس شغاف القلب ويمسح عن الروح تعبها، صوتٌ فيه عمقٌ يجعله يُشبه صوت فيروز، واتساع يجعله قريباً من صوت أم كلثوم، وفخامةً تجعله يذكرني بصوت ماجدة الرومي.

اختلست النظر إليها، فرأيتها تدور حول نفسها وترقص مع خيالها برشاقة راقصَّة بالية، رافعة يديها إلى السّماء تارة، وواضعة إياها على صدرها تارةً أخرى، أكملت:

الليلُ في بلدي تواشيحُ الغناءْ
وقِبَابُ قريتِنَا حِكاياتُ الإباءْ
وبيوتُنا الأقراطُ في أذنِ السّماء
بلدي ملاعبُ أنجمٍ تأتي المساءْ

تسرّب فرحها الموبؤ إلى روحي النافرة، وغزاني حماس شاذٌ أشعل أطرافي، فوجدت نفسي أأد أحزاني وغضبي، أستعيد طفولتي، وأقف في ساحة وعيها مردداً بقية الأنشودة:

لتقولَ هذي ليبيا بلدُ الضياءْ
ليبيا هرمُ الوفاءْ...

توقفت مرتبكة خجلة وكأنَّها قد تعرّت أمام أحدهم، ضممتها إلى صدري، فهمست ضاحكة:

- سيسمعنا خالكَ.

هل ألتقينا في تلك اللحظة حقاً؟ لماذا كان وجودها على صدري ثقيلاً مثل ليل اليتامى؟ لماذا ضايقتني رائحة جسدها التي لم أشمها في عمري إلا للحظاتٍ معدودة؟ لماذا اجتاحت فيافي قلبي رغبة عارمة في البكاء؟

منذ أن وصلنا إلى الموصل في خريف 2003م تغلَّفت أُمِّي بالسواد، صَامتْ - تقريباً - عن الكلام، وسكنت في سماء عينيها غمائم قاتمة الحزن، كانت تنهداتها الحارة المتصلة تنوء بثقل الغربة التي تطأ على قلبها، ونظراتها الشاردة المنكسرة تشي بحجم الندم الذي ينصب متاريسه الفاجعة في كُلِّ تقاطعات روحها المرهفة، ودموعها الساخنة المِدرار تُحذر من الحمم التي تتأجج تحت قشرة صبرها الهشَّة.

كُنتُ أعرف بأنني القشَّة الوحيدة التي تتمسك بها في طوفان حياتها الهائج وتمنعها من الغرق، كان تعلقها بي خوفاً عليّ وليس خوفاً على حياتها، ربما كانت تشعر بمسئوليتها عن وجودي في هذا المستنقع فجعلت من نفسها طوفاً يحملني، طوفاً يطفو فوق العفن كي لا أغرق فيه، وربما بسبب معرفتي تلك لم أكن سعيداً.

كُنت حين أعبر عن استيائي وسخطي من وضعنا، خاصّة حين بدأ خالي في تغيير طريقة معاملته لي ولها، كانت تحثّني قائلة:

- الرضا يا بُني، (اللي يرضى يعيش)، وإذا أراد الله لنا هذه الحياة فيجب أن نرضاها نحن لأنفسنا، كلّه خير إن شاء الله، كُلّه خير.

كُنت أعلم أنها لا تقول الحقيقة، أو بالأحرى لا تعبر عن نفسها حين تقول ذلك، لم تكن راضية عن شيء مما يحدث معها، ولا مقتنعة بشيء مما يحدث حولنا، كانت تغلي من الداخل رفضاً وتمرداً، كنت ألمس ذلك في حركاتها وسكناتها، في بُكاؤها الطويل على سجادتها أثناء صلاة قيام الليل، وفي استحمامها الذي لا ينتظم بوقت ولا نهاية له، تظلُّ تفرك جسدها بالليف والصابون لساعات داخل الحمام وهي تبكي أيضاً، حتّى جفَّتْ بشرتها وتشقَّقتْ وتقشَّرتْ وسالت منها الدماء.

نعم.. لم تكن أُمِّي تقول الحقيقة حين تحدثت عن الرضا، فأنا أعرفها أكثر من أي شخص آخر في العالم، أنا الوحيد الذي لم ينفصل

عنها مذ وعيتُ على هذه الدَّنيا ، مذ بدأت أفهم النّاس وأنا وحيدها الذي تلتزم بالتنفس بقربه حتّى صرتُ أقرأ أنفاسها شهقة شهقة وزفرة زفرة، صرتُ أعرفها أكثر مما تعرف هي نفسها، أعرف بأنَّها لبؤة متمردة لا تحب الحياة الرتيبة، فما بالك إذا كانت تلك الحياة أشبه بسجن، حياتها كلها تمرد وهروب لم يكبحهما سوى وجودي إلى جانبها، أشعر أحياناً بأني ما كنتُ القشَّة التي تمنعها من الغرق بل عقالاً يكبل قدميها و يحدَّ من مساحات هروبها.

كُنت حين أسألها عن طفولتي، عن أبي وكيف تعرفت عليه؟ عن خالتي فتحية، عن كُلِّ من أتذكر وجودهم في حياتها وحياتي في (الصّابري)، كانت تعترض أسئلتي بالقول:

- لا تسأل عن أشياء إن تبدُ لك تسؤك.

ثُمَّ لا تلتزم هي ذاتها بهذا التحذير، أو أن ذكرياتها قد كانت متمردة مثلها فلم تطق السجن والنفي والاهمال، فكانت تتسربَ إلى ذاكرتي ومضات صغيرة تضيء بعض مساحات من الماضي غير أنها لا تعطي صورة واضحة تماماً للأشياء فيه.

كنتُ أحسّ بالتشظي الذي تعانيه أُمِّي حين تلتزم الصمت، ولا تستجيب حتّى لإشاراتي، تظلُّ لأيام ساهمة شاردة تسبح في عالم من فراغ لا مُنتهي، لا ترفع إلى فمها سوى لقمة أو لقمتين خلال أيامٍ وليالٍ

طويلة، وكثيراً ما كان يستدعيني صوت نحيبها المرتفع من حجرتي، فأجدها غارقة في النّوم والدموع معاً، أوقظها فتستعيذ من الشيطان الرجيم، تمسح دموعها وتنهض لتُكمل بكاءها على سجادة الصلاة إلى أن يظهر النها، وأجدها مرّة أخرى تبالغ في خدمتي وتلبية احتياجاتي، وخدمة خالي ونسائه، كأنَّها تستجدي التعب الجسدي لعلَّه يُسكن روحها المُتعبة، ويهدئ من غليان قلبها الموجوع.

دفعتها عنّي برفق قدر استطاعتي، دخلت حجرتي دون أن أسمح لنظرة الحزن التي عادت قاتمة تملأ سماء عينيها أن تُكبل قلبي الموجوع إليها، دخلتُ غرفتي، أغلقت خلفي الباب وسمحتُ لدمعة بأن تسقط من مقلتي.

ليست المغفرة شيئا سهلاً على الإطلاق، ولا أظن أنها بالشيء الجيد أو الجميل، إنها في نظري الآن نبتة ضارة يجب أن تُقتلع بسرعة قبل أن تُفسد المحصول كله.

تذكرت ورقة سميرة في قبضة يدي، فتحتها وقرأت ما كُتب بها بخطٍ أنيق، وكما توقعت تماماً، كانت سميرة قد كتبت كلمة واحدة: (أحبكَ).

(9)

على عكس زوجته، كان جدِّي يُظهر حبه الشديد لي رغم أنه لا يحب أُمِّي، هو من سمّاني بـ (زياد) يوم وضعوني – قطعة لحم حمراء بين يديه، قال لأبي مزهواً:

- الآن أصبح لي ثلاثة أحفاد (محمود، وحبيبة وزياد).

وأصبحت المفضل لديه دون أخواي لأبي: حبيبة ومحمود الذي يحمل اسمه، أحبني أكثر منهما برغم أن والدتهما هي ابنة أخيه، ربما لأني كنت الوحيد الذي يحمل أنفه الصقري وعينيه الواسعتين، عشتُ في كنفه بعض مشاعر الأمراء، وادمنتُ سلوك الملوك الذي كان ينعشه، عشقت ابتسامته الحانية التي لا تفارق وجهه ما دمت في محيطه، وعناقه الذي ينتهي ليبدأ من جديد، أحببتُ وابل قبلاته التي ترطب جبيني ووجنتي، وهداياه التي علمتني نهم الحياة، لم يكن أحد يجرؤ على رفض طلباتي أو على ضربي في حضوره، وحين يحدث بأن يخرج أحدهم عن إرادة جدِّي ويضربني، يسارع – هذا الأحد -إلى عقد مناورات ومحاورات سرِية وعاجلة معي، يتنازل فيها عن كُلِّ ما يمكن أن يشتري صمتي عن أذاه أو أذاهم، فأفوز من زوجة جدِّي بالدنانير الكثيرة، ومن أبي بالملابس والحلوى، ومن حبيبة مزيداً من الاهتمام

والمساندة، وحدها أُمِّي لم تكن تساومني أو تستجدي صمتي، فجدي ساخط عليها على أية حال، ويسعى في كُلِّ لحظة إلى التخلص من تعلقها بابنه وإعادتها إلى أهلها، لقد كانت ترى في كراهيته لها تحدياً وكانت تكرهه بقدر ما هو يكرهها وأكثر.

كان جدِّي أداة انتقامي وتحقيق رضاي عن نفسي، وكُنتُ في- المقابل - صولجان سطوته وافتخاره، كما كُنتُ محميته التي يرعي فيها طيور أحلامه العملاقة، قال لي مرّةً:

- أخيكَ محمود، هذا الأبله، سينهي الثانوية العامة هذا العام ويريد أن يصبح ضابطاً في الجيش، هل يحتاج أحفاد محمود سليمان فايز لوظائف في الدولة؟ ألا يكفي هذه الدولة أبيك؟ إنه ابني الوحيد، وبرغم ذلك أخذوه منِّي، نحتوه ليأخذ شكلهم .

أضاف بعد فترة صمت كان يضغط فيها على أسنانه:

- كان بإمكانه تركهم، وكان بإمكاني إخراجه من بينهم، فهو وحيدي، من لتجارتي ولأملاكي غيره؟ كانوا سيمنحونه عفواً تقديراً لي، غير أنه هو الذي رفض الانفصام عنهم، اختار أن يكون عسكرياً ممرغاً في الوحل، لا تاجراً تتدفق بين يديه نوافير المال، اختار أن يكون عبداً يأتمر بأمر هذا، ويعاني من تناقضات الأمزجة إلى يوم النَّاس هذا على أن يكون هو الآمر الناهي.

ثُمَّ ابتسم وهو ينظر إليّ ويربت على كتفي:

- لا يهم، ليفعل ذاك الأبله محمود ابن الأبله الأكبر عبد الحميد ما يريد، هو الخاسر في النهاية، أما أنا، محمود سليمان فايز، فلديّ أنتَ، زياد عبد الحميد محمود سليمان فايز، ستصبح تاجراً كبيراً مثل جدكَ، وسنؤسس معاً شركات تجارية كثيرة وكبيرة.

لم يكن جدِّي يتوقع أن يموت فجأة في حادث سيارة، ويترك أمواله وتجارته لابن وحيد لا يهتم سوى بالإنفاق، خاصّة بعد أن أصبح معوقاً لا يتحرك إلا على كرسي ذي عجلات، أضاع كل تجارة والده وأمواله الكثيرة بحسب ما سمعت من بعض الليبيين المنظمين حديثاً إلينا من بنغازي، ولم يبق من أملاكه سوى بيته في (الصّابري) ومزرعة التفاح في ضواحي بنغازي ، وهذان العقاران هما حقي الآن ويجب أن لا أفرط في حقي أبداً.

لطالما كانت أمِّي تردد على مسامعي سواء حين كُنّا في (الصّابري)، أو بعد أن رحلنا إلى العراق والشام حين يغلبها الشوق للوطن فتنطق، بِأنَّ المزرعة بالذات هي حقِّي الخالص، ولا ينبغي لأحدِ آخر أن يُزاحمني عليه، كانت تُ ذّيلُ فرمانها الذي تُسطر فيه ذلك الحق بالعديد من المبررات والحجج، فالمزرعة بالأساس كانت ملكاً لجِدِّها هي، وإن كان يمتُّ بصِلةِ ما لجدي لأبي فهذا لا يمنح أحداً الحقَّ في استغلال ظروف الآخر وحاجته ونهب ما كان تحت يديه من أملاك

وعقارات، كانت تسرد قِصَّة استيلاء أجدادي لأبي على أرض أجدادها لأبيها كلما ذكرنا بنغازي، والصابري، أو أكلنا تفاحاً، كانت تقول:

جدِّي الرابع كان يحب التفاح، وهو قد زرع شتلاته في الأرض التي نهبها جدكَ محمود فايز قبل أن يعرف أحد في بنغازي كلها ما هو التفاح، وكيف هي رائحته؟ لن أبالغ إذا قُلت أنه أول من فعل ذلك في برقة كلها، بل وفي ليبيا كلها، كان ناشطاً في تجارة العبيد والملح، يرافق القوافل الراحلة والآتية، وحين احتل الإيطاليون بنغازي وتولوا زمام الأمور في كُلِّ شيء حتّى تلك التي كان يعتبرها من شأنه وحده ومن تخصصه انتهى أمر تجارته، بعد أن صار الإيطاليون يجلبون العبيد من أريتريا (مصوع) ويستعملونهم ضد المقاومة الليبية في الجبل وفي الخدمة أيضاً، حتّى أنه صار عبداً من عبيدهم يعمل في الأرض ويرعى الماشية، وحين انتهت الحرب العالمية الثانية وأخرج الإنجليز الإيطاليين من بنغازي، اعتبر جدِّي بِأنَّ مزرعة الإيطالي (جيبلوتي) التي كان يعمل بها حقه الذي سُلب منه، وتعويضه العادل عن خسارة تجارته وعبيده والملح، وشيئاً فشيئاً صار يجلب لها شتائل التفاح، ويزرعها بدلاً من أشجار الزيتون التي كان الإيطاليون يعشقون زراعتها في ليبيا وكأنهم يرغبون في مسح تاريخهم الأسود بأغصانه اليانعة الخضراء، بالتأكيد جدِّي الأول لم ينس أن يأتي بكامل أسرته، ومن بينها كان أخوه، جدَّ أبيكَ الرابع، الذي أغراه الطمع بأن يدُس السم لأخيه في تفاحة ويستولي على كُلِّ أملاكه.

من أخبرك بكل هذا التّاريخ؟.

كانت تجيب على سؤالي بفرح الواثق من ثبات قضيته وعدلها:

أبي... كان يقول بِأنَّ المزرعة حقه وحده، وأن جدَّ جدِّكَ ما هو إلا غاصب مُعتدي، مثله مثل الطليان، و يجب أن يُطرد بمثل الوسيلة التي طُرد بها الطليان.

يلزمه التعاون مع بريطانيا إذن لتقوم حرب عالمية ثالثة، وبعدها يعيد أرضه التي هي ليست بأرضه في الواقع.

كانت تؤلمها لهجتي الساخرة، ربما كانت كلماتي تُسرب إليها ظنّاً بأني أناصر جدِّي وأبي في قضيتهما مع جدها وأبيها، وتؤكد لها بِأنَّ جينات أبي هي التي غلبت جيناتها في جسدي، فتشعر بالهزيمة وتتراجع قليلاً إلى الصمت والشرود، وكأنها تبحث في ملفات ذاكرتها عن عنوان محامٍ قدير يستطيع أن يوقف تسربي الحثيث من بين يديها، يقبض على نكراني لتضحياتها ويودعني سجناً تحت الأرض ليس فيه نورٌ ولا فتحات تهوية، ثمّ يربطني إليها، طفلاً مُعقلاً عاقلاً، مطيعاً طائعاً إلى الأبد.

كنتُ أرى ألمها يطفح على صفحة وجهها تعكراً يُلجم لسانها للحظات ويُرقرق الدمع في مقلتيها عجزاً ورفضاً، تَشبكُ أصابع يديها في بعضهما وتتركها تتصارع للحظات، ثُمّ تعود بعد حين تهشُّ غمائم

الحزن والغضب عنها بحزم موسى في وجه السامري، وتقول بإيمان أهل الكهف وعزمهم:

لقد قررتُ أن أستعيد أرض جدِّي يوماً، وسوف أفعل، شئت أنتَ أم أبيت.

كانت تفتح جبهة قتال معي، فالأرض أرضي أنا، ألم يؤكد جدِّي ذلك في أكثر من مقال؟ أذكر مرّةً بِأَنَّهُ صرّح في وجه أبي غاضباً:

لا تظن بأنكَ سترثني، لن ترث هكتاراً واحداً من أرضي، ولا فلساً واحداً من أموالي، أنتَ عاقٌّ ولا تستحق ثروتي، سأكتب كل شيء لزياد، وحده تجري دمائي في عروقه، وحده يستحق أن يكون وريثاً لمحمود فايز، غداً. ..غداً سأذهب للسجل العقاري وأوثق كل شيء له.

لا أعتقد بِأَنَّ جدِّي يمكن أن يكذب أو يخلَّ بوعده لأحد مهما بدا ر جلاً جباراً مغروراً بالنسبة للأخرين، أعتقد جازماً بِأَنَّهُ قد أنجز وعده، وأن كل شيء باسمي الآن، وإن حدث أن حالت الظروف دون أن يفعل ذلك قبل وفاته، فالكلمة عنده كلمة، والوعد وعد، كذلك هو الأمر عندي، لن أتنازل عن شيء وعدني جدِّي به، وخصّني به دون ابنه (أبي) أو حفيده الآخر محمود (أخي لأبي)، أما حبيبة فلا يحقَّ لها أن تشترك في الميراث في عُرف جدِّي لأنها بنت، والبنت ستذهب إلى بيت رجل آخر، وتعيش تحت جناحه، فكيف يمنح أمواله هدية لغريب؟.

أخبرت أُمِّي بعد مغادرتنا لبنغازي بزمن طويل بما قاله جدِّي، كنتُ مثل الذي ألقى حجراً في بركة ماء راكدة، طفحت على وجهها الغائم ابتسامة مترددة، تقوس الجلد على طرفي فمها عدَّة مرات، غير أنه حين وصل الحجر إلى قاعها ثارت كتنين أُوقظ من سباته، وخلف باب هزيمتها المُوارب راحت تقذف نيرانها على قلبي:

لا أظنَّ بِأنَّ جدكَ يفعل ذلك، أنتَ لا تعرفه مثلي، إنه جبان، بخيل، أناني، جاحد.

ثُمَّ نظرت إليّ نظرة اشمئزاز أشعرتني بالغربة:

فيك الكثير منه.

كانت طعنةٌ نجلاء تتسع كلما زاد ارتباك أُمِّي، وكلما زاد تخبطها في بركة الوحل التي سقطت فيها، بلعتُ الطعنة كما عودتني أُمِّي، أوصدت أبواب روحي ومنعتها من الثورة، وجلست كما تعودتُ تحت ظلال الحزنُ، فهذا التصرف يريحني أكثر من أي شيء آخر، أن أتقوقع داخل نفسي، وأندبها، وأجلدها بكل نقيصة، أن أقنع قلبي بِأنَّهُ ضحية هذا العالم الشرير والذي ترأسه أُمِّي، وأنني أول أسرى التعاسة وآخرهم على الإطلاق، وأن الحياة لا حاجة لها تقضيها سوى جلدي وتعذيبي.

أعرف بِأنَ أُمِّي تكره جدِّي، وكذلك كان جدِّي يكرهها بذات العمق وأكثر، كلاهما كان يرى في الآخر غريمه وقاتله، ربما حققت أُمِّي بعض النصر عليه بفرارها بي من بين أحضانه، والنأي بي عنه المسافات العِظام، لكنني لا أعتقد بِأنَّهُ أحسّ بغيابي أو أنه صاحب الحزن حتّى قتله شوقاً إليّ، كان موته - وكما اخبرتني أُمِّي - مُدبراً من خالتي فتحية حين تسللت إلى مرآبه ليلاً وعبثت بفرامل سيارة والدي، وربما كانت أُمِّي هي المُحرض والمدبر الأول لعمل خالتي ذاك، أياً كان الأمر فموته كان في صالحي، وعليّ أن أسرع لتنفيذ وصيته والجلوس على ما تبقى من عروش ثروته، أليس هذا ما كان يريده جدِّي ويسعى لأن يحققه؟ كانت أمنيته الكبيرة بأن يضمن وريثاً حقيقياً لأمواله، وكُنتُ في نظره ذلك الوريث الذي يستحق شرف ذلك دون ابنه الوحيد، وحفيده الآخر، برغم أنه ظلَّ شاهراً سيفه في ميدان المعركة مع أُمِّي، وأنه ظلَّ مصمماً على قطع صلتها بحياته إلى آخر نفس، لعله قد أطلع على خطتها التي وضعتها منذ اللحظة التي قابلت فيها أبي عند تخوم مزرعته، وخمن بأننا - أنا وأبي - لسنا سوى عتبة تلج فوقها إلى قصر أحلامها الواسع، ألم تؤكد هي هذه الفرضية حين أقسمت أن تسترد أرض أبيها شئتُ أنا أم أبيت؟ إذن فهي تعتبرني من حزب جدِّي وأبرز مقاتليه، وليس رحمها الذي كبرت فيه من دمها سوى وعاءَ اتخذه أبي، وبمباركة جدِّي وطلبه - لخلق حفيد يحفظ ثروة محمود فايز من الزوال والاندثار .

(10)

مثل تائبٍ يرغب في التخلص من أوجاعه أمام المذبح بدأت أُمِّي تعترف، رتَّبت حيثياتها ومعطيات ذاكرتها، وبدأت ترتب الأحداث التي ترغب في سكبها في وعيي وذاكرتي بحسب أهميتها، وإمكانية تأثيرها في حياتي، بدأت بطفولتها، وصفتها بالتعيسة وهي تلمس نُدبة في قلبها وكأنها تعتذر عن شرخ جامحٍ في سلوكها، أخبرتني بأنَّها لم تكن سعيدة أبداً في طفولتها ، كانت دائماً خجول منطوية، حزينة باكية، لم تشعر بالرضى عن نفسها أبداً رغم حلاوة ملامح وجهها وبراءة عينيها.

كونها أنثى كان يثير مخاوف والديها دائماً، فالذئاب المسعورة بالشبق تتربص بفرجها وستنصب لها الفخاخ:

إياكِ أن يضحك على عقلكِ أحد، أعرف بأنكِ (هبلة) وتقعين في المحظور بسهولة.

هكذا كانت تودعها جدَّتي أمام باب المدرسة المختلطة كل صباح، قبل أن تقرر نهائياً بِأنَّ التعليم غير ضروري للفتاة وتحكم عليها بالسجن في البيت، يكفيها أن تتعلم الكنس والطبخ والترتيب وكيفية الاعتناء بزوج المستقبل، لم ترضخ بسهولة لتوسلات المعلمات اللاتي كُنَّ

معجبات بمستوى أُمِّي الدراسي، بذكائها وتميزها علمياً بين الطالبات، ووافقت – في النهاية -على مضض، رضيت أن تتحمل القلق الذي يحتويها كلما غادرت ابنتها إلى المدرسة على أن تتحمل وفود المعلمات اللاتي صرن يشكلن خطراً - وهنَّ يتقاطرن على بيتها في كُلِّ حين -على زواجها.

كان زوجها (جدِّي لأمي) العاطل عن العمل أغلب الأوقات يستقبلهن بنظرات إعجاب لا تخفى عن قلبها المُهدد بالخلع والبيع في سوق الخردوات، وكانت نظراتهن التي كسرتها سنوات العنوسة والانتظار واليأس لا تخفى عن روحها المُهددة بالحرق والوأد والنفي.

أعادت جدَّتي أُمِّي إلى المدرسة مُرغمة، فقضاء أهون من قضاء، أعادتها ولكن بعد أن ضمنت على يد طبيبة الحي (الحاجّة مريم) صون عفَّتها إلى أن يرزقها الله بعريس، قررت جدَّتي أن تمنح ثقتها لأصابع (الحاجّة مريم) التي وضعت الطفلة ذات الثمان سنوات على صندوق خشبي مزين بمرايا وصفائح ملونة ولامعة، أطعمتها سبع حبات تمر وأمرتها بأن تردد بعض الطلاسم التي ستجعل من أي ذئب شبق خيط حرير مرتخٍ فاشل أمام (حيط) حصنها الحصين.

اطمأنت جدَّتي لطلاسم (الحاجّة مريم) وتركت أُمِّي تعود إلى المدرسة، ومع ذلك لم تنس بأن توصيها في كلَّ صباح بأن لا تثق بأحد، خاصّة أولئك الذين يحملون بأيديهم مفاتيح الحصن، قالت بِأنَّ

الذئاب ذكية وتعرف كيف تجتاز سحر (الحاجّة مريم)، تعرف كيف تحفر تحت الأسوار المنيعة، وتقتحم أعْتَى الحصون وأمنعها.

خجلتُ في أن أسألها كيف يتمّ ذلك؟ عَلِق السؤال في حنجرتي دون أن أجد الجرأة على طرحه إلا على خالي الذي فهمت منه فيما بعد، وبالتفصيل، طريقة فتح فتاة (مقفولة).

تركتها تسرد وجعها برغم امتعاضي وامتلائي بالغضب والخجل، قالت بأنَّها كانت تُحب إحساسها بالتميز والتفوق في المدرسة وفي البيت، خاصّة حين تُقارن نفسها بأنور، شقيقها الوحيد، الولد المدلل، الأثير المُحصن عن كُلِّ خطأ أو عثرات.

كانت تكتم حسدها له حين يؤثره والديها بأشياء كثيرة أبسطها عناق صغير لا يكلفهما سوى ذراعين مفتوحين وبعضِ من فتات حنانٍ وحبٍ، لم تحضَّ بذاك العناق أبداً إلا اختلاساً، ولا سكرت بعتقِ الحنان الأموي والأبوي إلا تخيلاً وتمثيلاً.

كانت تتسلل إلى مخدعيهما، تهمسّ باسميهما لتتأكد بأنَّهما غارقين في لُجّة النوم، تقترب من غريميها، تفكُّ أسر وسادة والدها من بين ذراعيه، تحتل مكانها في هدوء ، ثُمَّ تشرع بنهمٍ في ملء رئتيها من رائحة عرقه، تربط عليها في جرار ذاكرتها بإحكام حتّى تنتابها النشوة، و ترضّها في ظلِّ حنينها بحرص كي لا تتبخر، تفعل ذات الشيء لوالدتها

أيضاً، تعانق ثدييها الكبيرين الرخوين ، تغمض عينيها وتتخيل بأنَّها عادت طفلة رضيعة تتلذذ بملمس حلمتيها بين شفتيها وفي روحها وفي كيانها كله.

كانت القيامة تقوم ولا تقعد حين يُكتشف أمرها، فتُضرب وكأنَّها عقوق، وتُشتم وكأنها عدوّ، وتُطرد من الغرفة وكأنها ذبابة مُتطفلة.

بناتكِ مرضى، خاصّة هذه الفاطمة .

على أساس أن فاطمة أو غيرها ليست ابنتكَ أنتَ أيضاً؟ لم أجلب أحداً من الشارع يا سيدي.. أتذكر؟.

أنتِ من ربيّتها، وأنتِ من أفسدها، فاطمة نسخة عنكِ.

يا سلام .

أنا لا ابن لي سوى أنور.

لا ابن لكَ سوى أنور؟!.... لي البنات ولك البنون؟.

نعم، فتحية وفاطمة بناتكِ أنتِ، أما أنا فابني أنور، أنور فقط.

يا لها من قسمةٍ ضيزى !.

شئتِ أم أبيتِ.

تلك المعركة الليلية المتكررة، برغم مرارة الوجع الذي يُغلفها، كانت تشعل فتيل سعادة شاذ في زاوية ما في قلب أُمِّي، ها هما والديها يصحوان، يتناقشان، يتعاركان، واسمها يتردد على لسانيهما برغم مكابرة كليهما، برغم تبرأهما منه كوصمة عارٍ أو خيانة ، إنهما يدعوانها – بوعي أو بدونه- للاستمرار في نهج اللصوصية والعناد، ويحذرانها من وأد ضرام الحنين الدائم، فتشرع لأجله نوافذ روحها، وتنفخ عليه من رياح الخبث المنعشة، ها هما يُشيدان – بلا وعي منهما – بعُود عِنادها المخضوض، فتظل تبلله في كُلِّ لحظة بوعدٍ مضمخ بالروعة، تنقضُّ توبتها التي يُعلنها الألم الناتج عن الضرب - في كُلِّ مرّة، وتعود إلى ممارسة عادتها السرية، تتسلل تحت جنح الليل، تسرق فاكهتها المحرمة، تسكر بها، ثُمّ تعود مكتظة بالألم لتخطط للعودة من جديد.

في اليوم التّالي، كانت تحوطها هالة من الأسى كتلك التي تُلازم المدمنين على المخدرات، غير إنَّها بعكسهم لا تسمح للإحباط بأنْ يكسر النظرة في عينيها، ويُسكن الحزن في مضارب روحها، تظلُّ تتمسك طوال النهار بابتسامة زعيم ذو إباء، تتوجه العظمة رُغماً عن سيل الهزائم الذي يغرق فيه، وهذا السلوك يثير حولها – بالطبع - زوابع الشكِّ والريبة التي بدورها تثير التساؤلات وتولد الإجابات الناقصَّة والخاطئة، كانت ابتسامتها السّاذجة الغامضة تُفسّرَ بالوقوع في دَاء الحُبّ من قِبل والديها، وبالعبط والتصنّع من قبل شقيقتها

الأكبر منها: فتحية، وبالسّخرية المستفزة من قبل شقيقها الأصغر منها: أنور، وفي كُلِّ الأحوال كان الضرب والركل، والسبّ والشتم المقترنة بالبصاق المتطاير هو ردَّة فعل الجميع.

حين أصبحت صبية في المدرسة ورأت التغيرات التي طرأت على جسدها كمراهقة ، انتابها الفزع والخوف، أحسّت بِأنَّ أوان اللعب قد انتهى وأنَّها الأن على مشارف كارثة، تلاطمت في بحار نفسها أمواج الرغبة دون أن تنضب مخازن ذاكرتها من الحنين لرائحة أبيها وملمس صدر أمِّها ، كانت تشعر بالارتباك كلما مرّت على مجموعة فتيان وإن لم يهتموا لأمرها، أو كلما تحرّش بها أحدهم بكلمة أو بنظرة، كانت الدماء تصعد حارة إلى وجنتيها وكأنَّها كانت تمشي أمامهم عارية، تتعثر خطواتها وتكاد تسقط وكأنهم قد بذروا طريقها بالشوكِ والحجارة، كانت تُحسّ بِأنَّ التغيرات التي طرأت على جسدها هي سبب مصيبتها مع نفسها ومع الآخرين، هي التي تثير العيون النهمة والسّاخرة معاً، وهي في ذات الوقت التي تثير حرائق روحها، حينذاك، صار النوم وأحلام اليقظة هما أهم وسائل الهروب، فشرعت تبني ممالك سعادتها في الهواء، وترسم واحات للنّشوى في فيافي الفراغ الممتد في حياتها ويومها، كلَّ يوم تؤلف قِصَّةً جديدة تكون هي بطلتها، هي ملكتها والشَّمس والقمر لها ساجدين، بفكرةٍ منها تتسطح الأرض وتكفُّ عن الدوران، بإشارة يتزاحم كلُّ رجال الأرض –

كما ذكور النّحل أو النّمل - لنيل رضاها، وكلٌّ نسائها- كشغالات النّمل والنّحل - على خدمتها.

كانت تتمادى في أحلامها وتسبح في ملكوت سحرها حتّى تلمس الفاكهة المُحرمة، وحين تقربها من فمها لتتذوق طعمها تدفعها من فوق حافة جنانها صيحات أمها الغاضبة من شرودها وسرحانها المخيف، أو صفعات أبيها المستهجنة لنومها المتكرر، فتسقط في فوهة جهنم، تصحو مذعورة وهي مقتنعة تمام الاقتناع بأنَّها ارتكبت خطيئة كُبرى، فتشرع تلقف أوراق الخجل تواري سوءات جسدها وروحها معاً.

رغم الغليان الذي كان يحرق صدرها، لم تكن تستطيع أن ترفع نظرها في وجه معلمة ظالمة أو معلم صفيق، وحين يدكُّ بساتين قلبها اليانعة ظلمٌ أو إهانة لا تفكر سوى بالتقوقع والتراجع، يكبح جماح رفضها وثوراتها موروث ضخم من التقريع والتوبيخ والنّهي والنّهر، تحمل من كُلِّ ذلك جراراً وأوعية وتركض في مسارب روحها تُخمد براكين الغضب وتأد جمرها.

برغم ذلك، لم تمت الثورة في داخلها تماماً ولا أبداً، كان غضبها ورفضها وثورتها تترسّب في العمق، تتراكم كثيبات ثُمَّ هضاباً ثُمَّ جبالاً شاهقة، تتكاثف حمماً حتّى انفجرت براكيناً تحرق كل ما يعترض طريقها، فاض بها الأمر في النهاية حين استفزتها عصا معلمة

الرياضيات حين طلبت منها أن تترك مكانها في الدرج الأول لإحدى قريباتها، رفضت في البداية بأدب قائلة بأنَّها تجلس بذاك الدرج منذ بداية العام مع زميلتها في الدرج (سُعدة)، فكان ردَّ المعلمة وهي تلوَح بعصاها بسخرية في أمام وجه أُمِّي:

إذن، اذهبي أنتِ وسُعدتكِ إلى الدرج الأخير.. اعتراض آخر وسألقي بكِ خارج الفصل.

كان الألم يتفاقم داخلها مع كُلِّ ضربة للعصا على كتفها أو على يديها، ويزداد العصيان فداحة، قاومت طويلاً وهي تقف أمام معلمتها مرتعشة الأطراف والفكِّ، دامعة العينين، دامية القلب والروح، وفي لحظة صفاء تقمّصت روح كليوبترا، حشرت أفاعي الدَّنيا في عينيها واختارت طريق الانعتاق، تحررت روحها من الخوف وأسرِ التعلق بالمدرسة، هجمت على المعلمة، نزعت العصا من يدها بعينين حمراوين تقذفان الشرر والشر، ثُمَّ انهالت بها على ظهر المعلمة وسط دهشة بقية الطالبات ورعبهن، لم تتوقف إلا حين انكسرت العصا وسمعت صوت ارتطام نصفها المعتوق على بلاط الفصل، توقفت مذعورة لا تسمع ولا ترى سوى أنفاسها العالية وعرقها المتقاطر الذي كان يتهاطل على جسد المعلمة الصارخة الباكية.

كان ذلك آخر عهد لها بالمدرسة، لم تنتظر حتَّى تقع بين يدي مدرسي المدرسة الآخرين، كلاب المدير المسعورة، حسب وصفها، بل

نطَّت فوق سور المدرسة مذهولة من شقاوة الصبي داخلها، ومأخوذة بعالم جديد من الانعتاق تخيلته يفتح لها ذراعيه مرحباً بآمالها وأحلامها المبتورة.

هربت لتقبع بين جدران بيت أبيها تحت لهيب عصيَ أخرى ووابل من الاهانات، وعواصف اللوم والتقريع، هربت لتكون متنفساً للاشتباكات المستمرة بين والديها، ومشجباً يعلقان عليه وجه الحياة الكريه .

غير أن من يذق طعم الحرية لمرّة، سيستلذ الألم من أجلها مرّات ؛ استسلمت للسياط حتّى حانت لها فرصة للهروب، كانت تتدرب على ذلك أثناء غياب أبيها، فتخرج من البيت، تتجول حوله وكأنها تحددُ ملامح ساحة الإقلاع في أرض خشنة مزروعة بالصخور الوعرة الناتئة.

كانت تصل إلى حدود مزرعة السيد محمود فايز (جدِّي لأبي) التي كان جدِّي لأمي يسكن في ركن منها، ويعمل فيها مشرفاً على العمال الذين كانوا يزرعون ويعتنون بشتلات وأشجار التفاح.

في إحدى جولاتها التقت بأبي عند تخوم المزرعة، كان يُنقب في خيلائه عن روائح العبث، وكانت تبحث في جنونها عن بوابه الهروب، تلاقت نظراتهما عند برزخ التوق، رأت في عينيه أبواباً تُشرع ويندلق منها نورٌ أضاء مسارب الحلم في قلبها، فانقشع ضباب الخوف واليأس،

وبدا الغد حلواً شهياً مثل تُفاحة طازجة، رأى في عينيها واحة رومانسية في فيافي زواجه القاحل، ابتسم، فكانت ابتسامته دعوة مفتوحة نحو فضاء الحُبّ الفسيح، تحسست ذراعيها فخُيل إليها بِأنَّ زغباً بدأ يبزغ فيهما، ينمو سريعاً ويتحول في أيام قلائل إلى أجنحة بامتداد الكون، ضاق بها المكان والزمان، وحلّقت إلى عالم أبي، لم يُجدِ تصبرها وانصياعها لرغبته في الانتظار ، ولا استكان عبثُ التوق في قلبها، فكانت تستيقظ في عتم الليالي وبردها بنشاط يثير عجبها، وتتسلل إلى دخوم المزرعة في نشوة تثير نهمها، ثُمَّ تنتظر إطلالته في شوق يثير جرأتها.

كان أبي قد اعتاد زيارة مزرعة والده التي تقع في ضواحي بنغازي الشرقية بين الفينة والأخرى، يمكث أياماً - وحيداً أو مع أسرته - في الاستراحة المبنية وسطها، يُشرف على العمال في المزرعة، وهو عمل لم يكن يحبه غير أن تهديدات جدِّي أرغمته عليه، أو يقضي الوقت في التدخين هارباً من برودة زوجته الدامية ومن ضغوط العمل التي لا ترحم.

في البداية لم يهتم لنظراتها وصُدفها التي كانت تُخطط لها بين شجيرات التفاح وعلى حدود المزرعة، غير أنه لم يستطع في النهاية مقاومة عينيها السوداوين الواسعتين، ولا جسدها الناعم، وجد في علاقته بها إثبات لخلود تأثير وسامته ورجولته في قلوب الإناث،

ووجدت في علاقتها به بوابة جديدة للهروب، تشبثت به وتشبث بها، طال مدى العلاقة السرَية لأكثر من ستة أشهر، وشُعلة الحَبّ التي كانت تحرك رياح الشوق، وتلهب اللقاء قد بدأت تخبو، رأت بوابتها التي تهبّ عليها بنسائم السعادة قد بدأت تُغلق شيئاً فشيئاً كمغارة كنزٍ انتهت صلاحية تعويذتها بعد أن دفعت لأجلها أغلى كنوزها، لاحظت بِأنَّ أبي راح يتعمد عدم الحضور لأيام، ويهملها أثناء اللقاءات التي أصبحت أقصر من تكَّة دقيقة، اتخذت قرارها في النهاية، حزمت أمرها وهربت إلى الاستراحة تحت ستار الليل، هربت إليه، وضعته أمام الأمر الواقع، وتزوجته رغم معارضة أسرته وأسرتها معاً، وكانت ثمرة هذا الزواج أنا، أتيت بعد ثمانية أشهر، ثمرةَ حنظلٍ لا يطيق مرار وجودها أحدٌ منهما، كنتُ لهما بيضة البطة السوداء التي يتهم كلٌّ منهما الآخر بحشرها في عُشِّه، يرمي كلٌّ منهما بجريرتها على الآخر حتّى فسدت البيضة وفاح منها العفن.

تُرى، أكنتُ سأتحول إلى بجعة جميلة لو أنهما نظرا إليّ – فقط- نظرةً دافئة؟ .

في أحيان كثيرة لا ألوم أبي، ألوم فقط أُمِّي، أرى بِأنَّ المفاتيح كانت كلها في يدها، وأنها كانت وحدها تملك القدرة على فتح أبواب الحق، ووصد أبواب الباطل، وفي أحيان أخرى لا ألومها على الإطلاق، فهي على أية حال امرأة، ناقِصَة عقل ودين، ناقِصَة إلى درجة العبط، ألم

تكن هي زليخة حين راودت أبي عن قلبه وقالت " هيت لك "؟ ألم تكن هي حواء حين أغوته وخرَبت خلوده في الجنّة؟ ألم تكن هي زوجة لوط حين اختارت أن تهرب من أبي، وتضعني وسط سلّة التفاح الفاسد؟.

لا ينبغي أن أنظر إلى أُمّي بهذه الصورة، أليس كذلك؟ فالجنّة على أية حال تحت قدميها، وإن كان خالي يؤكد دائماً بِأنَّ الجنّة لها أبواب كثيرة، لا تمثل أقدام الأمهات سوى كُوةٌ صغيرة فيها.

لا أعتقد بِأنَّ أُمّي تفكر في أحدٍ غير نفسها، منذ أن هربت من المدرسة صارت عبدةً لنزواتها، أسيرة لغضبها وتمردها، مدمنة هروب دائم، لا تنتشي إلا إذا أعادت كرته ، هذا ما أكدته بعد وفاة والديها في حادث سيارة، ما كادت أيام العزاء تنتهي حتّى وجدت باباً جديداً يُفتح أمامها لتتخلص من قيود أبي التي كانت ترى بأنَّها تكبل روحها منذ سبع سنوات، ومن سياطه التي ظلَّت تلسع قلبها مذ أحس بتعلقها الشديد به، لم يكن أبي يعرف بأنَّها نمرة متمردة تدوس قلبيهما معاً وتهرب حين تُدميها النصال.

أثار خبر وفاة والديها معاً زوابع الحزن في قلبها، غير أنه بالتأكيد أضاء شعلة فرح صغيرة رأت منها فُرجة تكفي لتلج منها إلى حدائق السلام والحرية من جديد، كوّة يمكن أن تتصالح فيها مع ذاتها، ويمكن

أن تنسى الندم الذي يلتهم روحها كما تلتهم جحافل النمل الأبيض الخشب العاري.

في الفترة التي توفي فيها والدها، كان خالي يقضي مدة عقوبة في السجن فاتخذت أُمِّي من وحدة شقيقتها فتحية حُجة للعودة إلى البيت الذي لم تطأه مذ غادرته تحت وطأة العشق، أخذتني معها لأكون شاهداً على حكاية جلد أخرى راويتها هي خالتي فتحية، عادت إلى البيت الذي كانت لا تراه إلا خلسة ومن وراء زجاج الاستراحة القاتم، أو تحت ستار ليل المزرعة الصموت، كانت تقف في البعيد، تراقب وجه أبيها وهو يُشرف على العمال والحزن الممزوج بالغضب وبالذلِّ يطفو على ملامحه قاتماً مثل غيوم البَرد، وينهمر بين الحين والآخر وابلاً من النوبات العصبية التي يكون ضحيتها إما زوجته وابنته فتحية أو العمال الذين يُشرف عليهم في المزرعة.

خرج خالي من السجن، فاستقبله أبي وجدي بتهديد بأنهما سيعداه إلى السجن إن لم يُسلمني إليهما، وكان ذلك فرصة انتظرها خالي وخالتي فتحية وأمي طويلاً، أصبحت – في أيديهم -عود الثقاب الذي سيَشعلون به قلبي جدِّي وأبي معاً، وقرر ثلاثتهم أن يحكُّوا رأسي ببساط الحياة الخشن.

هرب بي خالي مع أمي، بجوازات سفر وأسماء مزورة، وتركا خالتي فتحية تُخطط لإعاقة أبي وجدي عن ملاحقتهم، أو بالأحرى تُخطط للانتقام لقلبها المغدور.

(11)

وطئت أقدامنا شواطئ بنغازي حوالي العاشرة صباحاً، بعد أن غادرنا (آقنوس) على متن أحد القوارب التي تُستعمل للطوارئ بعيداً عن الميناء بمسافة، كان الجميع متحمسين لمعانقة شواطئ بنغازي، أغلبهم يأتيها للمرة الأولى مثل جوزيف أو يوسف - الاسم الذي يُصرّ هو والإخوان عليه - والذي ردد حين كُنّا في القارب وهو يمسح الأفق بناظريه ، وكأنه يلقي بتعويذة لفتح مغارة ممتلئة بالكنوز:

يوسبريدس... يوسبريدس.

سأله أبو فارس عمّا تمتم به ومعناه، فروى له حديثاً نسبه لليوناني (أناتولي) قال فيه بِأنَّ بنغازي (يوسبريدس) هي مدينة لليونانيين، هم من بناها، وهم من أعطاها اسماً وحياة، هم من خلدها في أسطورة مع آلهتهم يوم طلبت من هرقل تُفاحاً ذهبياً من حدائقها ، وعليه فهم أحقّ بها الآن.

أثار حديثه موجة من الضحك والتعليقات الناضحة بالدهشة والسخرية وكثير من الرفض والثورة، وحمدتُ الله بأنهم لم يعلموا بحديث اليوناني وآماله إلا بعد أن غادروا باخرته، كانوا يضربون

صدورهم – كقطيع من القردة - ويلوحون بقبضاتهم في الهواء مهديين، العربي يردد بأنَّها للعرب، والمسلم غير العربي: بأنَّها للمسلمين، وذو الأصول الأمازيغية بأنَّها للبربر، وحده جوزيف كان طرازانهم، داس على غضبهم وسحقه كما تُسحقُ أعقاب السجائر، أثار إعجابي في تلك اللحظة وجعلني أعيد التفكير في أمره، تحدث بتفصيلٍ مملٍّ ودقَّة تثير الدهشة عن بنغازي والإغريق والرومان، عن الفتح الاسلامي لها، وعن المشروع اليهودي فيها وفي برقة على العموم، وكيف أنها كانت في يومٍ ما المقترح الأول كوطنٍ لليهود، عن الطليان وعمر المختار وبريطانيا والملك إدريس والأمم المتحدة والاستقلال، قال أشياء لا يعلمها أغلبنا، حتّى أنا ابن بنغازي وطريدها العائد.

كُنتُ كلما تحدث جوزيف عن بنغازي أزداد ارتباكاً وقلقاً وتردداً، ومع تدفقه في الحديث كان قلبي ينبض بشدَّة، وأنفاسي تتلاحق بسرعة، صدري يعلو ويهبط، وشفتاي ترتعشان باضطراب كأنَّني عريس مسلوب القلب تُزيّن له عروساً لا يطيق النظر في عينيها ، بالطبع فقد لاحظ جوزيف اضطرابي فلا ظلام يستر وجهي هذه المرّة عن عينيه المترصدتين، وترجمه مرّة أخرى بالخوف من البحر والدوار وما إلى ذلك، هذه المرّة لم أهتم لما قاله، نظرت إلى الأفق، حيث كان ضوء الشَّمس يلسع شوارع بنغازي ومبانيها بلهيبه الصباحي الناقم ، وحيث كان البحر يخنقها بذراعيه الممتدتين شرقاً وغرباً ويُرسل رياحه

الشمالية المشبعة بالملح والرطوبة لتُخلل أزقتها وتنخر مسام مبانيها الكثيرة.

بنغازي – المدينة التي لم تحبني يوماً – تقبع في الأفق، تقترب شيئاً فشيئاً، كساحرة عجوز تكاد تتعثر في طلاسمها ، تثير في قلبي الاشمئزاز والتحدي، وتزرع في روحي مشاريع واسعة للانتقام ، وكلما اقتربنا تحولت الساحرة إلى عاهرة، تغمر قدميها في الماء المالح ناشدةً الطُهر المستحيل في عيوني، تُركز نظراتها على قلبي فتنبتُ لي مخالب وأنياب، وجهها المتغضن يهتك تصبري وانتظاري، ونسماتها التي تشبه الفحيح تثير أمعائي فأكاد أتقيأ وجعاً.

غير بعيد، لاح (الصّابري) معاتباً كأبٍ عانى دهراً من المرض والوحدة والفقد، كشيخٍ أضناه الانتظار وأكل قلبه الظلم واليأس فاستسلم لعبث الجنون.

ترقرقت عيناي بالدموع، وتذكرت – لأول مرّةٍ منذ أمدٍ بعيد - أبي وبيتنا، طفت ذكرياتي معه بسرعة وعنفوان على سطح ذاكرتي كأسرى يفرون من معتقل رهيب، كانت صوره نظيفة ولامعة مثل ذهبٍ طُمر في قعر بئر لمئات السنين فظلَّ بنفس نقائه وقيمته والحاجة إليه ، وكأن بنغازي تعاتبني، وكأنها تستجديني السلام والصفح والغفران، تذكرت هدايا أبي في الأعياد، وابتسامته حين نجاحي، تذكرت غضبه

المكتوم حين أمرض، وصمته الطويل حين أرفض أن أطيع أمره، تذكرت سؤاله المستمر لي:

من تُحب أكثر مِنَّا، أنا أم أمكَ؟

فأجيبه همساً:

أنتَ.

وبذات الطريقة أجيب أُمِّي حين تسألني ذات السؤال، بالطبع كانا يكتشفان لؤمي، يضحكان طويلاً، ويُعلق أبي على ذلك بنبوءة يذرو عليها رماد أحلامه، ويقول بأنني سأصبح يوماً سياسياً كبيراً، أمّا أُمِّي فكانت تكتفي كعادتها بالابتسام وبالنظرة الحزينة الطويلة إلى الأفق.

برز في عقلي سؤال عنيد، امتشق حُسام غربتي وسنوات الضياع، وراح يُهشم كل الصور الطافية كزنابق الماء:

لماذا لم يبحث عنِّي أبي؟ لماذا لم يفتقدني؟

تذكرتُ مدرستي، و(منال) رفيقتي في الصفِّ وزميلتي في الدرج، تذكرت شعرها المُجعد المنكوش، والذي كانت تبالغ في إهماله، وكيف كان يثير سخرية بقية التلاميذ، خيوط سوداء غليظة رفضت الامتثال في ضفيرة أو الانسدال، وصعدت في مسارب لولبية متمردة إلى السّماء جعلتها تبدو كمغنِّي الهيب هوب السود مع فارق بياض بشرتها،

تذكرت بأنَّها زارتني منذ أيام في منامي، قبل أن تموت أُمِّي، كانت قد ظفَّرتْ شعرها في ضفيرتين طويلتين جميلتين وكانت تُمزق كتبها المدرسية وتُشعل فيها النار، تمتد النار وتكاد تطال ملابسي التي أرتديها، اقفز في مكاني مفزوعاً، أناديها بأن تُطفئ نارها وتنقذني لكنها تدير وجهها عني وتغادر وضحكاتها تتناثر حولها بجنون، فأسقط من على سريري .

تذكرتُ ميلود (الهبل) وكيف كان يركض بين الشوارع صائحاً بعبارات لم نكن نفهمها، ونحن نركض خلفه صائحين فرحين لا أدري لماذا ولا بماذا؟، وتذكرت كيف أن أبي كان يردد دائماً حين يراه:

ميلود هذا أعقل مِنَّا جميعاً.

تذكرت سي صالح الذي كان يسكن الشقَّة التي تعلو شقتنا تماماً، وكيف كان يطرق فوق رؤوسنا ليلاً ونهاراً، وحين سألت أبي لماذا يفعل ذلك؟ أخبرني بِأَنَّهُ قد أصيب بالجنون بعد أن شُنق ابنه بتهمة العمالة والخيانة للوطن في رمضان 1977م، وقد صعد إليه والدي يوماً متسائلاً عما يفعله، فأخبره بِأَنَّهُ يصنع سفينة نوح، ثُمَّ اختفى بعد ذلك هو وسفينته التي لم يرها أحد.

مرّتْ تلك الصور والذكريات في خاطري ونحن نقترب من الشاطئ، وحين وصلنا وجدنا في انتظارنا رجلاً قصيراً ممتلئ الجسد

يرتدي قبعه الصيادين، ويثبت سيجارة خلف أذنه، رأيناه يخرج من أحد أكواخ السعف حين رسونا، هلل وكبّر، ثُمَّ أخذ كل فردٍ مِنَّا بالأحضان.

رميت بنفسي على الرمال المبتلة فمسحت ظهري موجة حانية شعرت بعد انحسارها بالطهر والنقاء.

أمضيت الظهيرة مستلقياً داخل أحد الأكواخ الصّغيرة المنتشرة على الشاطئ تلك الأكواخ التي يستغلها بعض الشباب في الاسترزاق بإكرائها للمصطافين، هياكل خشبية مُغطاة بجريد النخل امتدت على مسافة كيلو متر تقريباً في مواجهة البحر، كانت كلها خالية .

تناولت غدائي الذي كان عبارة عن سمك مشوي مع (شرمولة) (6) وبعض قطعٍ من الخبز الشامي مع رفاقي في ذات الكوخ، ثُمَّ تفرق الجميع واختار كلٌّ منهم مكاناً ليشخُر فيه كيفما يشاء ويزيل عناء أيامٍ طويلة من الحلِّ والترحال، نزعت قميصي عندما أصبحتُ وحدي، لففته على شكل وسادة وأرحت عليها رأسي.

توقف النسيم فجأةً وسكن موج البحر، مكبٌّ نفاياتٍ غير بعيد تتركز روائحه وتهجم نفاذةً على خياشيمي، خيوط الشَّمس اللاهبة

---

[6] طبق صيفي يُعدُّ من الطماطم الطازج والفلفل الأخضر والخيار وربما الثوم أو البصل ، تهرس مع الملح والزيت ، وتُقدم مع الخبز .

التي تتحول من خلال الفتحات التي تركها السعف إلى سهامٍ حادة، وسياطٍ لاذعة على وجهي وجسدي، الذباب الذي يقرص بقوة فكٌ عقرب يحولني إلى آلة مطاردة أسعى إلى سحقه فلا أنجح سوى في صفع وجهي ولطم جلدي، جلست في مكاني ساخطاً مُهتاجاً، فلمحتُ عبّر الفتحات أبا فارس وهو يقف غير بعيد مع ثلاثة غرباء، كانوا مُشعثي الشعر مُهملي اللحى، ويدخنون بشراهة، وكان هو يُبالغ في الالتفات وهو يتكلم إليهم رابتاً – بين الفينة والأخرى - على صناديق المعدات الطبية التي رافقتنا من حلبٍ، تناول إحداها، فتحه أمامهم، فسقطت بعض القطع الحديدية على الرمال، انتشلها من على الأرض ثُمّ جمعها معاً، ويا لهول ما رأيته يتجسد أمامي: بندقية من نوعAS50 التي يستعملها القناصة ؛ لدقتها العالية على إصابة الأهداف البعيدة، وقدرتها على قتل الفيل واختراق التحصينات كما يقولون، أعرفها جيداً تلك القاتلة فقد أحضر خالي ذات مرّةٍ واحدة معه إلى البيت ونحن في حلب، وأخبرني كل شيء عن تلك البريطانية اللعوب كما وصفها، قال بأنّها تستولي على قلب من يحضنها، وفي المقابل تُخلص له وتُطيعه كلما تأججت رغبته في صيد رؤوس الكُفار والمرتدين، ثُمّ قذف أمنية في قلبي بأن أتمكن يوماً من اقتناء مثلها.

تنقّلت البندقية بين أيدي الرجال الغرباء، رفعها ثالثهم إلى مستوى كتفه ونظر من خلال منظارها وهو يديرها في كُلِّ الاتجاهات وكأنه يبحث عن هدف، توقف تجاهي تماماً فأصابني الشلل، وكأنه

قد اكتشف أمراً، نظر إلى أبي فارس وتمتم بشيء، سارع أبو فارس إلى تفحص الصناديق مرة أخرى، وربت على بعضها في الأسفل، سلَّم الرجل البندقية إلى أحد زميليه ثُمّ انحنى يُخرج الصناديق التي أشار إليها أبو فارس، كانت بيضاء بدون علامة الهلال، وحين فتحها رأيت كمية كبيرة من الذخيرة، تناول الرجل بعضها وحشا بها مخزن بندقيته فأصابني الهلع، اسقطتُ رأسي على الرمال وأنا ألهث وأغمضت عيني غير عابئ بلهيب الشَّمس ولا روائح العفن ولا الذباب .

تعرّفت على البندقية القنّاصة غير أنني لم أتعرف على وقع رصاصها في الجسد البشري، فإذا كانت هي كتومٌ صامتة، فهل ستحمل رصاصتها ذات الميزة والصفات؟ ألن يكون لها أزيز مُحذر أو صوت ارتطام أو اختراق مُنبه؟ هل ستُعلن الرصاصة عن فعلها بإشعال الألم مواضع اختراقها للحم والعظم؟ أم أنها ستنزع الروح في سرَية تامة حتّى عن صاحب الروح نفسه؟ وهل. ..حشا ذاك الرجل المخزن وسدَّد رصاصة نحوي؟ أم أنَّه ينتظر أن أنظر إليه.

لم تطعني أجفاني الثقيلة إلا بعد حين، سمحت لي باستعارة سلوك الذئب وفتح عينٌ واحدة فلم أرَ سوى الرمال والبحر أمامي، اختفى الرجال، وأبو فارس والصناديق، قفزت جالساً في مكاني، درتُ ببصري عبر الفتحات، تتبعت بنظري آثار الأقدام على الرمال، تناهى إلى سمعي هدير محرك سيارة، وصَفْقُ أبواب تُغلق من بعيد، التفتَّ إلى

جهة الصّوت فرأيت الرجال الثلاثة وقد صعدوا إلى سيارة جيب ليبرتي سوداء يلوَحون مودِّعين لأبي فارس ثُمّ يستديرون بسيارتهم ويرحلون .

بقي أبو فارس لحظات يشيعهم، ثُمّ أخرج هاتفه النقال وراح يتحدث فيه وهو يجوب المكان جيئة وذهاباً، أغلق هاتفه ووضعه في جيبه ثُمّ حثَّ خُطاه متجهاً نحو كوخي.

(12)

نهضت من نومها مذهولة، بسملت وهي تضع يدها على قلبها، نظرت إلى وجهي ملياً، ثُمّ ابتسمت:

أُمِّي، هل أنتِ بخير؟

اكتفت بهزّةٍ من رأسها لتدفع جموع القلق التي تجمهرت في صوتي، اتسعت ابتسامتها وهي تقول:

سأرحل قريباً.

ارتدت جموع القلق لتحاصر روحي من جديد، إذا كانت تفكر في الفرار من جديد فهذا يعني موتها وموتي بالتأكيد، محاولتها السّاذجة العام الماضي لم تهترئ في سجل الذاكرة بعد، ما تزال ناصعة الألم، انتظرت لتنفيذ فرارها الشتاء بطوله وجزء كبير من فصل الربيع كي لا يعيقها الثلج ولا البرد، طبعت قبلة على وجنتي، استحلفتني بكل أولياء ثقافتها الشعبية المؤمنة أن أغامر معها، أن أتخلى عن ترددي وخوفي وأرافقها، كان خوفي من الوأد حياً في حال فشلنا، أكبر من خوفي من فقدها في حال خذلتها، كان غضب الأمير – خليفة الله كما ينادونه هنا– منّي في حال وافقتها، أعظم من غضبها عليّ في حال

رفضت الامتثال لطلبها، لذا رفضت بشدة، هددتها بأنَّها ستضطرني لفصل رأسها عن جسدها حتّى تتوقف مثل تلك الأفكار، هددتها بأن أسجنها في بئر مهجورة عثرت عليها أثناء تطوافي في المنطقة وأُسلِّط عليها ذئاب جزعي تنهش روحها ليل نهار، أن أهجرها الأيام والليالي حتّى تفيق من سكرة الهروب التي تسدُّ منافذ الهواء عن عقلها الناقص، أن... أنتحر وأحرمها منِّي.

كانت رياح إصرارها تسلبني كل يوم، وكل لحظة جزءَ من ثوب جدِّيتي حتّى بدت لها في النهاية كل تهديداتي فارغة جوفاء عارية عن كُلِّ صدق، حينها رمت سهمها الواثق الذي أصابني في مقتل:

لن تفعل، لن تفعل.

ألحت عليّ فكرة إخبار خالي بالأمر فهو يعرف كيف يكبح جماح تمردها دون أن يعلم أحد في التنظيم، سيقنعها ككل مرة بأنَّها ستفقدني وتفقده إن تصرفت أي تصرف فردي أحمق، سيعدها ككل مرة بأننا سنعود كلنا إلى الوطن وبطريقة لا تُغضب أحد ولا تعرضنا للخطر وسنبقى في الظلِّ إلى أن تمر قاطرة الغد وتنشلنا من سياط الخوف والندم.

مدى اقتناع أُمِّي بما يتفوه به خالي لا يتجاوز عمر ومضة، تعود بعدها تجلس شاردة فوق خازوق الألم، يأكل صرير الانتظار روحها

وتتسول الفكر العقيم عن طريقة لصُنع أجنحة، كانت حالتها تلك تزداد استفحالاً كلما طلبها أحد المجاهدين لنكاح الجهاد، بسبب جمالها الذي تتناقل أخباره ألسنة السابقين، يُسابق اللاحقون على اقتناص فرصة للنهل من ينبوعه، يستحثهم على الاستعجال والالحاح والتصميم كونها ليبية البلد والمنشأ، هذه الميزة تمثل لدى الكثيرين منهم راية نصر، خاصّة أولئك الذين كانوا يكرهون القذافي، وكأن فروج الليبيات كانت مُدخلاً للبصق على وجهه الكريه.

لا أحد مِنَّا -لا هي ولا أنا ولا خالي – كان يملك الحق أو الجَراءة في رفض طلب أحدهم، كُنا نُكره في البداية وبكينا ثلاثتنا، ثُمّ وافقنا على مضض وكففنا دموع السخط، ثُمّ في نهاية الأمر صرانا نعتاد الأمر، والأفدح من ذلك أن الأمر صار يمنحنا بعض الرضا ونهنئ بعضنا بعضاً به رافعين أقدامنا – التي تغسلها دموعٌ بلا عنوان - درجة أخرى إلى جنة ربَ العالمين ، كُنت أجلس بعد ذهابها إلى زوجها الجديد وحيداً، أفتقدها ولا أفتقدها، تُحاصرني نظرة ا لحزن في عينيها وهي تُزف إلى عريسها وتجلد روحي بسياطها الملتهبة، أذّقيها بفراغ روحي رافعاً في وجهها قِصَّة هروبها من بنغازي، خطيئتها الأولى وجرمها الأكبر التي نزعت كل أوراق الاحترام عن سوءة عمرها، أظلُّ أتقلب على لظى عذابها الذي يتسرب عبر مسام جسدها إلى روحي كلما لمست كفي حتّى أني كثيراً ما كرهت يدها، لا تنقذني إلا زيارات سميرة – زوجة

خالي، خالي الذي لم يفارق خلفية الصورة التي التقطتها في قلبي الموجوع لأمي.

اتكأت أُمِّي على حجري، أطبقت جفنيها بقوة وكأنها تجاهد في نشل ما تودُّ قوله من غور أعماقها، قالت:

لم نكن أنا وأبيك على وفاق أبداً.

لم تكن تلك معلومة جديدة بالنسبة إليّ فسنوات طفولتي التي قضيتها بينهما كانت مكتظة بمعاركهما التي لا تنتهي إلا لتبدأ من جديد، معارك بلا بواعث ولا فتوحات، كان كلٌّ منهما يسلط على الآخر جيوش انكساره، يدكُّ قلاع خيبات الآخر، ويُطلق سراح الآلام المتوحشة الأسيرة لتعيث فساداً في قلبيهما، تجوس في روحيهما تجتث براعم الرّحمة، وتقطع رقاب التسامح حتّى يرهقهما التعب فيلجآن إلى هدنة صغيرة يعدَّان فيها ما يستطيعان من قوة ورباط الكراهية ؛ ليرهبا بها قلبي المبعثر بينهما.

لا أحد كان يُهزم في معاركهما غيري، في كُلِّ معركة تهتز روحي بعنف وتسقط من جدران ثقتي بالحياة لبنة، وبعد كل عراك ينطفئ نور في سراديب روحي، ويفرّ مذعوراً سبح شعوري الهزيل بالأمان، يسقط حلم يافع كان برتبة أمير ويقع أسيراً في أيدي قبائل القلق البدائية تقتاته على مهل.

كُنتُ أقف تحت رذاذ لعابهما المتطاير فوقي أشد كل منهما إليّ، علَّه يتنازل عن عرش جبروته ويوقع اتفاقية سلام لأجلي، علَّه يعلن تأجيل المعركة لحين صفاء أجوائهما من غيومي، غير أن الغضب قد عطَّل وعيهما بطاقته الرهيبة فلم يلاحظ أي منهما سيول رعبي الجارفة التي كانت تُحطم كل شيء في داخلي، كنت لا أجد وسيلة للفرار من مطحنة لقاءاتهما الرهيبة سوى بالفرار منهما، أصمّ (أذنيّ) وأركض خارج البيت، أهيم مع أصحابي في الشوارع، نركض ونلعب بجنون وأتصورهم جميعاً مثلي، أمراء مهزومون، فارّون من معارك لم يرفعوا فيها سوى رايات الاستسلام ، لحظات اللعب والفرح المسروقة تلك كانت تُنسيني الأعاصير المجنونة في بيتنا، لكنها لحظات كانت تنتهي في النهاية ككل شيء في هذه الحياة، حين يحلُّ المساء أو يقرع الجوع ناقوسه في أمعاء الأصدقاء، فيتنشرون بعد تردد لا يطول، كلاً عائداً إلى بيته يحمل فرح صغير علِق في روحه من صحبتنا معاً، يلفه بعناد ويطمره في ركنٍ غوير آمن في الذاكرة، كلٌّ منَّا كان مؤمناً أشد الإيمان بِأَنَّهُ سيجد أمامه في البيت ميداناً أحمرا سيَصلب فيه فرحه الصغير، ثم تُجزّ رقبة الفرح بالمقصلة.

تنحنحت تعترض هروبي من ساحة اعترافها، وتابعت:

برغم العراك الذي كان لا ينتهي بيننا كنتُ أحبه، وأحبه جداً، وأخاله -في بعض الأحيان – قد أحبني أيضاً، زواجنا لم يباركه أحد غيرنا

نحن الاثنين، لا جدك، ولي أمر أبيك، ولا والدي، ولا حتى خالتك فتحية البقية الباقية من أهلي، أما خالك فلم نستشره لأني أعرف رأيه وأعرف بِأَنَّهُ لن يوافق أبداً على زواج أخته من ابن الرجل الذي سلب أرض أبيه.

كان وجوده في سجن أبو سليم في طرابلس - حيث الداخل مفقود- إذناً غيابياً بحرية التصرف رغم معارضة فتحية الشديدة، ونواحها المتصل وكأنها كانت تندبني.

صورة خالتي فتحية في ذاكرتي ضبابية مشوشة، تكاد تتحول إلى مومياء غامضة الملامح، كان اسمها أكثر شيء يحرك الغضب في نفسي، ما زلت أذكر أنها هي التي أحرقت مزرعة جدِّي قبل أن نغادر بأيام، لم يكن لدى أبي دليل أكيد على اتهامه ذاك سوى قناني الكيروسين الفارغة التي تغطي محيط بيتها، ورغم ذلك وضعها في السجن، وهدد بأ ن يعيد خالي الذي خرج حديثاً إلى السجن، وحين بكت أُمِّي واعترضت، أقسم بأن تكون هي أيضاً من المسجونين.

حين توفي جدِّي لأمي، وأقامت أُمِّي – وطبعاً كنتُ أرافقها- في مأتمه، ثُمَّ قررت فجأة أن لا تعود إلى أبي، أذكر بأني كنتُ سعيداً حينها، ربما لأني وجدت في إقامتي قريباً من مزرعة جدِّي فرصة لي للحياة بحرية، فرصة لأن أتنسم عطر التفاح كل صباح، وأغازل العصافير وحدي، كنتُ أخطط لدعوة (مرعي) و(علي) لاعتزال الدُّنيا هناك،

ونقيم في ذاك الفردوس لا همٌ ولا ألم، كنت أحلم بأن أخطف (منال) من نفسها المكابرة وأسبي قلبها المتعجرف وروحها المتغطرسة، وأجعل من عطرها الغامض ملك يمين لقلبي، سأبني لها بين أشجار التفاح قصراً من لؤلؤ، وأجرَ لها بين كُثيبات المزرعة نهراً من ذهب، كنتُ أقضي النهار بطوله تحت أشجار التفاح، آكل منها وأنام في ظلها، ولا أعود إلا حين تنام خالتي فتحية، فأنجو من سياط لسانها ولهيب كفيها، ويبدو أن فعلي ذاك كان مصدر راحة لأمي أيضاً، فلم تعترض على سلوكي، ربما كانت ترى في وجودي أغلب الوقت في مزرعة جدِّي حقاً من حقوقي، فهي مزرعتي في النهاية دون أدنى شكٍّ.

أذكر بِأنَّ الخيبة قد شلَّت كياني حين أتى أبي – بعد شهرين من مأتم جدِّي - وجرجر أُمِّي رُغماً عنها وعني إلى البيت، شعرت بِأنَّ أمنية قد سُرقت مني، وأن الحياة ترفض أبداً أن تبتسم لي.

أذكر بِأنَّ خالتي فتحية كانت تقف عند الباب كصنم، تتفرج على أبي وهو يجرجر أُمِّي الباكية، كانت تتراقص على فمها ابتسامة مُحيرة، لم أفهم معناها إلى الآن هل كانت تبتسم تشفياً أم عجزاً؟ رضاً أم سخريةً؟ سقطت دمعة من عينيها فابتسمت أنا، أسعدني في تلك اللحظة أن أرى خالتي فتحية تبكي، حتّى وإن كانت دمعة متمردة عقوق كتلك التي رصدتها عيناي منها.

دمعة سارعت إلى مسحها بسرعة عن خدها وكأنها تُخفي دليل إدانة، نظرتْ إليّ ترصدُ ابتسامتي وتوثقها، لكنني لم أرتعب منها مثلما كنتُ أفعل طوال الشهرين الماضيين، بل نظرتُ إليها بتحدٍ ووسعت بلؤمٍ ابتسامتي، وبعد أن طرد أبي أمِّي ذات ليلة من شقته واحتفظ بي عنده أسيراً لرغبة جدِّي، لم أعترض على فراقي لأمي وفصلي عنها، كما لم أفرح ببقائي مع أبي وانتقالي للحياة مع زوجته الأخرى، كنتُ أخاف العودة إلى خالتي فتحية، وأخشى انتقامها، وفي ذات الوقت لا أدري إن كانت (زينب) زوجة أبي هي نسخة أخرى عن خالتي فتحية؟.

خالتكَ فتحية طيبة، وقد ظلمها الزمان كثيراً...

قالت أمِّي وكأنها كانت تقرأ موضوع تفكيري، ثُمَّ أضافت بنبرة مستسلمة:

مثلما يفعل معنا جميعاً.

لا أصدق أن خالتي فتحية يمكن أن تكون إنساناً يحمل بين جوانحه قلباً طيباً، إنها وحشٌ كاسر، كانت تحرمني من أبسط الأشياء، من الطعام، من اللعب، كانت تضربني بقسوة وكأنني قاتل أبيها، وتوبخني بعنفٍ وكأنني سارق بهجة الحياة من عينيها:

هل أخبركَ بسرّ؟

سألت أُمِّي وهي تقطع سيل صوري المُستعادة عن خالتي، أومأت برأسي فتابعت دون أن تنتظر موافقتي الصوتية:

خالتكَ فتحية كانت تُحب أبيك أيضاً.

سكن براح ذاكرتي للحظات، توقفت رياح الذكريات عن العبث في ساحاتها، جمدت الصور كما وأن عُطلاً فنياً قد أصابها:

من أجل هذا كنتُ أرفض العودة إلى أبيك، لقد ضحك على كلينا، أوهمني بِأَنَّهُ يحبني وحدي وفعل الشيء نفسه معها.

توقفت الأرض عن الدوران، وشيئاً فشيئاً بدأت الصور تأخذ مكانها الطبيعي، تذكرتُ ابتسامتي التي واجهت بها دمعة خالتي وكرهت نفسي، شعرت بالغضب والخجل، من أُمِّي، من أبي، من خالتي، وأكثر من هؤلاء جميعاً من نفسي.

(13)

تحركت بنا الحافلة الصّغيرة بعيداً عن الشاطئ، دخلنا شارع (عشرة) في (الزريريعية) حيث مقبرة (سيدي أعبيد) التي قال جوزيف بِأنَّ مدينة يوسبريدس القديمة توجد تحتها، أزهرت في قلبي أمنية أن تمر الحافلة بمدرستي القديمة، مدرسة السواعد الابتدائية، التي قطعت صلتي بها ذات صباح لألحق بأمي وخالي.

أذكر ذاك الصّباح جيداً، كُنتُ أجلس في درجي داخل الفصل، وكانت معلمة اللغة العربية (الآنسة عفاف) تشرح درساً عن الأم، كانت كلماتها تثير زوابع الحنين في روحي، وتستعرض في ذاكرتي كل صور أُمِّي البيضاء، أُمِّي وهي تضمني بحنان، أُمِّي وهي تمسح دمعتي وتلبي طلباتي، أُمِّي وهي تساعدني في إداء واجباتي وتشرح لي دروسي، أُمِّي وهي تفرح لي، تقلق لأجلي، تذود عَنِّي،... طفتْ الصور الإيجابية، تراكمت وأشعلت ضرام الشوق في قلبي، أخذ قلبي يرتجف تحت لظاها وأسناني تصطك وكأنني محموم، لحسن الحظِّ لم تلاحظ الآنسة عفاف ذلك، ولا لاحظت دمعتي التي انسابت على خدِّي ثُمَّ سقطت فوق كراستي المفتوحة فوق الدرج، نقلتُ ما كُتب فوق السبورة إلى كراستي بروحٍ تشبعت من سمِّ الفراق، وحين انتهيت لمحت (حبيبة) تقف عند الباب بعباءتها السوداء الطويلة المرتوية بالأوساخ والأتربة،

كانت تنظر إليّ بغضبٍ وكأنها تعرف عمق الجرح الذي أحدثه الدرس في قلبي:

زياد عبد الحميد.

قفزتُ في مكاني واقفاً دون أن تطيعني الـ(نعم) لتأكيد هويتي لمعلمة الإشراف التي كانت ترافق (حبيبة) .

خذ حقيبتك وأدواتك وتعال معي.

انصعت لأمرها بسرعة دون أن أفكر حتّى في أخذ الإذن من الآنسة عفاف التي كانت تقف مدهوشة ولا أفهم سبباً لدهشتها.

أمكَ هُنا.

بادرتني (حبيبة) دون أن أسألها، فانعشت مبادرتها روحي، وأوقدت قناديل الفرح في قلبي، أضاءت عيناي بالسعادة، فرحتُ لأنها هُنا، وفرحتُ لأنها أُمِّي وحدي الآن وفي كُلِّ وقت.

حملت (حبيبة) حقيبتي الثقيلة عنِّي واحتضنتها بقوة، ثُمَّ طبعت قبلة فوق جلدها المزين بصور أبطال الرسوم المتحركة وكأنها ترغب في رشوتي، مددت يدي المرتعشة وتشبثتُ بيدها، كانت كفُّها باردة مثل كفِّ ميت، وكانت أيضاً ترتجف مثلي.

سِرنا معاً نتبع طرقات كعب حذاء معلمة الإشراف التي كانت تتردد في الممر الطويل الصامت، كُنتُ أسمع أنفاس (حبيبة) السريعة أيضاً، وأتصور زفيرها حارقاً كنار تخرج من منخري تنين غاضب، رفعت بصري إليها فاصطدم بحبتي لؤلؤ كانت تناضل في حبسهما داخل مقلتيها.

حين توقفتْ فجأة، أحاطني الفضول، نظرت حولي أبحث عن سبب اضطرام الغضب في عيني حبيبة وازدياد عبوسها، كانت المعلمة قد اختفت في إحدى الحجرات، وأمامنا على بعد أمتارٍ كانت تقف أُمِّي ترتدي قميصاً أبيضاً فوق تنورة يغلب عليها البياض، بدت لي كعروس تستعد لزفافها لولا وجهها الكئيب الشاحب وعينيها المحاصرتين بهالتين داكنتين، على صفحة وجهها وفي عينيها كانت تتصارع البهجة الخجول مع ثلاثة سفاحين عمالقة: الحزن والخوف والقلق، تنتصر البهجة حيناً فتشعّ ابتسامه صغيرة على ثغرها، تلتمع كبرق في ليلة شتوية مظلمة ثُمَّ تختفي خلف ستار أسود من أدخنة الغزاة المنتصرين.

قفز قلبي الصغير واستلم راية روحي حين ركعت أُمِّي على الأرض وفتحت ذراعيها على وسعهما، نفضت يدي من كفِّ حبيبة التي كانت تضغط عليها بقوة وكأنها ترغب في أسري عندها إلى الأبد ، وأسرعت أقذف بنفسي في حضن أُمِّي.

حضنُ أُمِّي رمى عن كاهلي ثقل أسئلة ظلت طوال ثلاثة أشهر تنهش قلبي، كنت أذاكر تلك الأسئلة كل ليلة، بل في كُلِّ لحظة لأطرحها عليها حالما ألتقيها: لماذا غابت.. غابت طويلاً عنّي؟ لماذا تركتني؟ لماذا خرجت ولم تعد؟ كان من عادتها أن تعدني بقبلة بأنَّها ستعود خلال ساعة على الأكثر حينما يبين لها شاغلٌ ما، أما تلك الليلة الربيعية التي غادرت فيها شقتنا الصّغيرة في (الصّابري) لم تفكر حتّى في أن تنظر إليّ، غادرت قبل أن تشرق شمس الصّباح ، قبل أن استيقظ فلا أجد إفطاري وحقيبتي المدرسية وملابسي جاهزة تنتظر صحوي ككل صباح، حتّى حذائي الذي اعتادت أن تنظفه قبل أن استيقظ وجدته ما يزال يحتفظ بأوحال الأمس التي علقت به أثناء ركضنا في الشوارع تحت المطر.

لم أسألها، لم أعاتبها، تنشقت طويلاً عرقها الممزوج برائحة المسك.

لم تترك سعادتي بعودتها وبحضنها مكاناً سوى لدموع الفرح، طبعت قبلة على جبيني وهمست في أذني:

آسفة يا صغيري..اشتقت إليكَ كثيراً .

خلفها، كان يقف شابٌ طويل نحيف، ينسدل شعره المُهمل على كتفيه مثل شعر فتاة، وتغطي لحيته الكثيفة أغلب وجهه وتنزل على صدره، عيناه مألوفتان، بدا مرتبكاً وينظر إليّ شزراً وكأنه مغصوب على الحضور، كان يلتفت ذات اليمين وذات اليسار ويُطالبها بالإسراع،

فاستجابت أُمِّي لأمره، خطفتني من يدي وراحت تركض بي خلفه وكأننا لصوص، بين أيدينا كنوز وخلفنا تركض جحافل الشرطة.

لاحقاً، عرفت من أُمِّي بِأنَّ ذاك الرجل هو خالي أنور، كان ينبغي أن أتعرف عليه- برغم هزاله الشديد - من النُدبة التي تقسم حاجبه الأيمن، خالي هو الآخر غاب كثيراً عن طفولتي، غير أن اسمه لم يغب يوماً عن بيتنا، كان اسمه كُرةً يتقاذفها أبي وأمي في شجارهما اليومي، أبي هجائاً وسخرية وقدحا، وأمي مدحاً وتزكية وإعلاءَ.

ركبنا سيارة أجرة كانت في انتظارنا، اتكأت على حجر أُمِّي، شعرت بيدها تمسح ظهري، وتمسح ثقل الوجع الذي كُنت أشعر به سواء في بيت جدِّي، أم في بيت أبي الثاني.

فجأة بدأ يفور في داخلي ينبوع عتاب واستنكار، بدأ صغيراً يبقبق بفقاعات رمادية من الرفض، ثُمَّ فار وتدفق وصار قيعاناً تكبر شيئاً فشيئاً، مهددة بأن تصبح – في النهاية - مستنقعاً للكراهية من جديد، كان حضور أُمِّي يحاول الصعود فوق قلبي ويجفف بنسائمه المنعشة كل ما خلفه مطر غيابها في قلبي، يعمل جاهداً على تدثير روحي المبعثرة بشيء من الدفء، ويطعمها الحنان الذي افتقده مذ سقطتُ من رحمها، قلب الطفل في داخلي يريد بكل شوقه لأمي أن ينسى، وكبرياء الرجل الصغير الذي صنعته الظروف في داخلي يستنكر، يرفض،

يثور، يحاول الخربشة على ملامح وجهها الصافي، يضع في يدها سكيناً حادة النصل مسمومة الأطراف ويغرسه في روحي.

لماذا تركتني؟ سؤال كان كبير بحجم الشوق إليها، ظل معلقاً في المسافة بيني وبينها، ظلَّ يقرع طبوله حاشداً جحافل الغضب، ومحرضاً على تأجيج رحى الكراهية، لماذا غادرت ذات ليلة دون أن تفكر في الطفل الذي ينام في الغرفة المجاورة؟ أبلغ بها التفكير في ذاتها حدَّ أن تتبرأ من قطعة اللحم التي انفصلت إلى الحياة عنها؟ تخلصت مني كما ثألول، كما قشرة جلد ميتة، ولماذا عادت الآن؟ أتراها أحستْ بالندم، بالشوق إليّ؟ وهل عليّ أن أسامحها بكل تلك السهولة؟.

أشحتُ بتفكيري عن كُلِّ تلك الأسئلة، وألقيت نظرة إلى الثلاثة أشهر التي قضيتها في كنف جدِّي وأبي في غيابها، كنتُ قد أعلنت الحرب على زوجة جدِّي، وبدأت في ممارسة سياسة الاقصاء والتعذيب عليها فلم أكن أزورها إلا حين يفيض بي الكيل في بيت أبي، مع زوجته نورية وأبنائه منها: محمود وحبيبية، كانت نورية امرأة تنضح بالكراهية والشر، لسانها السليط لم ينج منه أحد حتى أبنائها، شعرت بالتعاطف معهما ومع أبي أيضاً، وحررتُ له ملفات عذرٍ شرعي لعلاقاته النسائية المتناثرة هنا وهناك، منحته صكوك غفران لأنَّه مزواج، فمن ذا الذي يطيق حياة مع صنم، مع قطعة ثلج تتحول إلى لهيب يحرق أولاده في غيابه؟ ومن ذا الذي يمكنه أن يغلبها بغير كسر

أنفها، وذلك بالنظر إلى غيرها من النساء؟ الذي يفعل ذلك في الحالتين ليس سوى أبي، ومع ذلك فقط حظيت بحصانة من الطلاق، وذلك ما لم تحظ به أية زوجة أخرى له، بعكس أُمِّي، لم يرمِ عليها يمين الطلاق أبداً، وبعكس أُمِّي أيضاً، لم يشتبك معها في معارك كلامية أبداً .

شقتنا كانت هناك.

أشرت إلى نقطة في آخر الشارع مجيباً عن سؤالِ لأبي فارس ،قلت (كانت) ربما لأنني لست متأكداً بأنَّها ما تزال هناك، ثُمَّ أضفت مجيباً عن سؤالِ آخر:

أما بيت جدِّي وشقة أبي الأخرى فهما على بعد شارعين في هذا الاتجاه.

كان الرفاق قد كفُّوا عن الثرثرة التي لزموها مذ تركنا الشاطئ، وراحوا ينصتون إلى أسئلة أبي فارس وإجاباتي، سألني كضابط تحقيق عن كُلِّ زاوية في (الصّابري)، وأجبت مثل بريء ينفي عنه تهمة، سميتُ له كل شوارعه، ومدارسه ومرافقه، ومع كل سؤال وإجابة كان يلوح خطٌّ دقيق يفصل بيننا، أقف أنا على جانب منه، ويقف هو وبقية الرفاق على الطرف الآخر، كنت أؤكد له في كُلِّ إجاباتي بأنني ابن (الصّابري)، وكان يؤكد لي في كُلِّ أسئلته، وبكل صمت الآخرين وانتباههم: بأنني (البنغازي) بل والليبي الوحيد بينهم.

مرّ بصري على عبارات متمردة ومتناقضة كانت مكتوبة فوق بعض الجدران، كان أغلبها مكتوباً بخطوط رديئة وبأخطاء نحوية وإملائية فظيعة، يتغزل بعضها بالثورة ويُمجّد التمرد والعصيان، بعضها الآخر يدعو إلى تحكيم شرع الله وإقامة الدولة الإسلامية، ويجعل الذبح نهاية مرتقبة لكل من لا ينصاع تحت راية الخلافة.

شعارات ضبابية أخرى تنادي بالديمقراطية ودولة المؤسسات، هززتُ رأسي مستنكراً تلك المساحة الشاسعة والمترامية الأطراف من الحرية التي منحها الربيع العربي للناس، لا ينبغي أن نسمح للعبارات الهدامة والأفكار الغربية الغريبة أن تُفسد حياتنا، لكن الحياة ربما ستكون أفضل بفكرة جديدة أو رأي آخر..... إذا أردنا أن تعلو راية الحقِّ فلا ينبغي أن نؤمن بشيء اسمه حرية، أليست راية الحق – في حدِّ ذاتها وثيقة للحرية والسلام؟... الحياة إذا لم تُقيد بشريعة سماوية ستُصبح فوضى وخراب.. ومن الذي يفسر المضامين؟ ألا يحتمل أن تنقلب الشريعة إلى فوضى وخراب إذا ما تبنت تفسيرها عقول صدئة قد نخرتها الأرضة؟.

مرّت كل تلك التناقضات وغيرها في مخيلتي دون أن ترسو على برّ.

أشم رائحة رؤوس قد أينعت وحان قطافها.

قال أبو فارس بغضبٍ ظاهر عندما قرأ بعض العبارات، واصل وهو يتململ في مكانه بعصبية مثل سمكة قرشٍ أهاجها رائحة الدم :

الله أكبر يا شباب، حي على الجهاد، حي على الجهاد.

رددنا خلفه التكبير بحكة ببغاء، ونحن نرفع سباباتنا في الهواء.

خرجنا من (الصّابري) ، ظلَّ قلبي يتمرغ باكياً في آفاقه هناك كطفل عنيد ظُلم، يرفض الرحيل دون أن يأخذ حقَّه ويُردُ له اعتباره، مررنا بأحياء كُنت فقط أسمع عنها، وشوارع لم أدخلها في طفولتي على الإطلاق، وأماكن لم تطأها قدماي إلا ماراً في سيارة أبي أو جدِّي، لم تثر اهتمامي في عودتي بالتعرف عليها، لم أبحث عن لوحات قد تحمل أسماءها، ولا أثرت أسئلة عنها، وظللتُ أنظر عبر النافذة ببرود الغريب .

حاولت بعض الأحياء الأخرى التي مررنا بها أن تراودني عن قرفي من المكان بجمال مبانيها وحداثتها، وخضار حدائقها وتناسقها، ورشاقة شوارعها واتساعها، فتشبث قلبي بكبريائه العنيد وأعلن كعاشق خانته محبوبته بِأنَّ لا مكان في بنغازي يستحق الحُبّ.

أشحتُ ببصري عن الطريق مثل تقي يخشى الفتنة من حِسانٍ يتراقصن حوله، ورُحت أعبث بمسبحة أُمِّي التي لم تفارق أصابع يمناها إلا في اللحظة التي لفظت فيها نفسها الأخير.

وصلنا أخيراً إلى بيت جميل، لا أعرف بالتحديد في أي منطقة يقع، كان عبارة عن فيلا تشبه إلى حد كبير فيلا جدِّي، تحيط بها حديقة

وارفة الظلال، حين اجتزنا ممراتها غمرتنا روائع الفل والجوري وإكليل الجبل والليمون، صوت آذان المغرب من مسجدِ قريب صاحب خطواتنا الأولى داخل البيت.

مرحباً بأسود الله.

رحّب خالي بنا وهلل، وهو يعانقنا فرداً فرداً، كُنت آخر من عانقه، وأكثر من احتفظ به على صدره، حتّى كدتُ أن أختنق برائحة الخمر التي تفوح من ملابسه.

مرحباً خالي، أرى أنكَ سبقتنا.

آها.. خالكَ أبو البراء سبّاق دائماً.

ضغط على كلمتي أبو البراء، ثُمّ قهقه بصوت عالٍ وبشكل غير متوازن.

لم يسألني عن أُمِّي (أخته) وكأنه قد حضر موتها ومراسم دفنها، لاحظت أيضاً بِأَنَّهُ تخلّص من التأتأة التي عادة ما تربط لسانه حين يتحدث، وهذا دليل آخر على أنه كان سكراناً، فلسانه ينطلق ويتحرر حين يغيب عقله.

بعد أن تناولنا العشاء، بقيت مع خالي لوحدنا، جلسنا وجهاً لوجه، تأملني طويلاً ثُمّ سأل:

لم..لما...لماذا...لم..لم..تخب...تخبرني...ب..بأنَّ..أم..أمزيا..زياد ما...ماتت؟.

ها قد علمتَ.

طأطأ إلى الأرض ببصره، ران إلى الصمت طويلاً، فرّت من عينه دمعة، مسحها وهو يبتسم وكأنه يستنكرها، ثُمّ نهض قائلاً:

إذ...إذهب...لل...للنوم.

ألصقت بصري بظهره حتّى توارى خلف أحد الأبواب، نظرتُ إلى ساعة معلقة على الحائط، تابعت عقربها القافز في رتابة مقلقة، تلوث المكان بالذكريات بقيت للحظات لوحدي، مرَ أمامي طيف أُمِّي أيام كانت تجمعنا شقتنا في (الصّابري)، كانت تجتزئي شيئاً من وجبات الطعام، وتخبئها في فرن الموقد وهي تحذرني بأن لا أخبر أبي وعندما يأتي خالي في غياب أبي عن الشقَّة كان يلتهمها ثُمّ يستحم وينام، أو تحملني أكياساً مملؤة بالطعام والفاكهة والعصائر والحليب ومشتقاته، وتأمرني بأن أعطيها لخالي الذي يقف عند الباب كشحاذ بائس دون أن ينتبه أبي المشدود دائماً إلى نشرات الأخبار، كانت تغسل له ملابسه الوسخة، وتوفر المال لتشتري له الجديد، كانت أيضاً توبخه كأمٍ قلقة، وتنصحه دائماً أن يبحث عن عمل، ويترك رفاق السوء الذين دمّروا حياته، وجعلوه يبيع كل ما يملك، من أجل سعادة زائفة تمنحها لهم سيجارة حشيش أو كأس خمر.

ما لم أكن أفهمه هو الكره المتبادل بينه وبين أبي، والذي كان يبلغ بأبي في بعض الأحيان إلى مدِّ يده وضرب خالي، مرّة راح يركله ويضرب رأسه على الجدار حتّى أغمي عليه، ومرة أخرى حبسه في مقر الأمن الداخلي الذي يرأسه، وحين اعترضت أُمِّي وبكت أخرج لها صوراً لخالي وهو ملثّمٌ ويحمل في يده زجاجة مشتعلة الرأس، سألها بغضب عارم:

أتعرفين من هذا وماذا يحمل في يده؟.

لم يتركها تجب، أجاب هو بِأنَّ الذي في الصورة هو شقيقها أنور، وأن ما يحمله في يده هو قنبلة مولوتوف يدوية الصنع، قال أيضاً بِأنَّ خالي كان قد اشترك في مظاهرة تخريبية ضد النظام، وبأنه كان يهمّ لحظة التقاط الصورة برمي القنبلة على مركزٍ للشرطة، ثُمّ أضاف في سخرية مريرة:

ما دخل أخيكِ المتشرد بالنظام ..أخوك شخص عابث، مريض، يريد فقط أن يحرق ويدمر وينهب، هذا ما فعلوه بمركز الشرطة ، إنهم شرذمة من الساقطين، ولو أنهم وجدوا نساء في المركز لاغتصبوهن، كانوا ليفعلوا أي شيء...

عند تلك النقطة، أوقفت شريط الذكريات، أسدلت بيني وبينه ستارة كثيفة وقاتمة، تثاءبت ومطيت جسدي كقطِ كسول، ثُمّ نهضت إلى الغرفة التي سأقضي ليلتي فيها، أطفأت المصباح الكهربائي ورميت جسدي على السرير الوثير الذي كان يتوسط الغرفة الفاخرة، وما

كُدتُ أضع رأسي على الوسادة حتّى سمعت صرير الباب يُفتح، نظرت مرعوباً وأنا أتصور خالي قد عاد لينتقم مني، فقد كنتُ أشعر بأني قد أغضبته بطريقة ما، ربما لأنني لم أتصل به حال وفاة أُمِّي، وربما لأنني لم أهتم لاستقباله الحار، غير أن الخيال الذي كان عند الباب ليس خيال خالي، فهو يميل إلى القصر وإلى النحافة، وهي علامات ليست لخالي الطويل الذي نفخته الغربة حتّى صار ضخماً مثل برميل.

هدأت أعصابي حين شممت عطراً نسائياً وابتسمت، اتسعت ابتسامتي حين رمى الخيال بنفسه فوقي، وجاءني التأكيد همساً:

ألم تشتق إليّ أيها الغرّ السفيه؟.

سميرة؟

نعم سميرة، وهل كُنت تتوقع غيري؟

أين خالي؟

مع إحدى زوجاته الأخريات، الليلة ليست ليلتي..

مدت يدها إلي بحبة دواء عرفت أنه الكابتاجون، ثُمّ أضافت وهي تمطر عنقي بالقبلات:

تناول هذه كي لا تنام.

(14)

مرّ على وجودي في بنغازي أسبوع تقريباً، كُنتُ أقضي نهاري في مراقبة الفيلات المحيطة وحدائقها الصّامتة من خلال الشرفات والنوافذ، وليلي في حضن سميرة أو في حضن ذكرياتي حين لا تتمكن سميرة من المجيء.

وَفَّر خالي لي – على غير المتوقع - جهاز واي فاي وحاسوباً لأتمكن من مواصلة مهامي، مدَّني بشريط مسجل لعملية انتحارية استهدفت معسكر يتبع قوات الصاعقة في ضواحي بنغازي، وبعض البيانات والصور كي أنشرها على الصفحة الخاصة بالتنظيم باعتبارها مهام أنجزها التنظيم في المنطقة، كانت صوراً ومشاهد فضيعة، فالتفجير الانتحاري قد أودى بحياة أكثر من ثلاثة وثلاثين عسكرياً، عدا الجرحى والمفقودين، والصور كانت لإعدام بعض الأشخاص ممن يُطلق عليهم اسم (الصحوات) الذين يحرضون النّاس ضد التنظيم، كان إعدامهم رمياً بالرصاص أو ذبحاً أو صلباً، وهدم بيوتهم وإضرام النّيران في سياراتهم، مشاهد رهيبة مازالت تثير في جسدي قشعريرة، وفي قلبي الخوف مذ كلفني الأمير بإدارة الصفحة.

وحالما ا نتهي من مهمتي كان خالي أول من يضرب كتفي مردداً:

أحسنت يا بطل.

يلتقط الآخرون عبارته المُشجعة في كُلِّ مرة، يتناقلونها على أفواههم كدواء مرّ ممزوج بنكهات الحسد والحقد، وكنتُ أرد على الجميع بابتسامة صفراء وإيماءة أشدَّ اصفراراً، أمّا أعماقي فكانت تتأجج فيها نيران غضب مكتوم، كثيراً ما كان يطفو بعنادٍ ويسيطر على تفكيري وأعصابي، وحين يصطدم بعيون الرفاق المترصدة كعيون ذئاب شمّت رائحة فريسة يرتدَّ كسيراً وهو حسير ، يسحب كتائبه المجحفلة ويختبئ تحت الرماد جمرة صغيرة تُصرّ على كيِّ روحي حتّى يلتهب وجهي ويتصبب العرق البارد من كُلِّ أنحاء جسدي ، أحياناً كنتُ أنتفض، أضرب المنضدة بقبضة يدي أو جانب وركي أو أي شيء قريب منّي في حركات لا إرادية تصورني في عيون الآخرين مصاباً بالجنون.

قبل أن تموت أُمِّي كنتُ أهدهد نفسي بأراجيز الصبر والخلاص القريب، وكانت بنغازي كثيراً ما تزورني في أحلامي، ناشزٌ أكل قلبها الندم، تلثُمّ قدماي بذلٍّ تطلب عفوي، تعتذر عن أحمال الوجع التي حشرتها في قلبي قبل أن أغادرها، تستجديني حتّى أدير إليها وجهي، فأرى نفسي في عينيها طفلاً صغيراً يركض مع أصدقائه في شوارع (الصّابري) وعلى شاطئه الطويل المكتظ دائماً بالمارقين عن عُرف الحياة، والمنبوذين من ممالك بهجتها، بالتائهين عن الحقيقة، والهاربين

من سياط الضمير، بالمتسولين لخدر ابتسامة رسمها ظمأهم، بلصوص الوهم.

يركض الطفل حتّى يتعب فيتمدد على فراشه متشبثاً بابتسامة، يتوسد نشوتها وينام دون أن يغتسل، أو يبحث عن طعام، أو شراب، أو يفتقد صدر أمه، وحين يزيل النّوم كل آثار التعب، ويصحو الطفل، يركض إلى النافذة يراقب انهمار المطر، أو إطلالة الخيوط الأولى لأشعة الشمس.

طوال ثلاثة عشر عاماً ، كانت مشاعري نحو أُمِّي غير ثابتة مثل وميض منارة بعيدة لقارب يائس حاصرته جبال الموج، واهية مثل شقائق النعمان سرعان ما تنتزع الريح بتلاتها حلما تزهر في قلبي، كُنتُ أحب وجودها في حياتي ولا أحبه ، راضٍ عن تردد أنفاسها بقربي ومعترضٌ على ذلك ، ممتنٌ لأنها أُمِّي وساخطٌ لأنها كذلك، أحياناً أرى وجهها صافياً منعشاً كسماء الربيع، وأحياناً غائماً ومقرفاً مثل مستنقعٍ منسي، فوق ملامحها أعثر أحياناً على تشابهٍ صفيق بينها وبين نورية وزينب وكل النساء الشريرات، وأحياناً أراها لا تشبه أحد، أرقى طُهراً من ملاك، وأنفس من جوهرة فريدة، وأعظم من الأمس واليوم والغد.

عندما غادرنا الحدود الليبية المصرية بجوازات سفر مزورة تغيرت أُمِّي، لبست روحاً أخرى غير روحها التي عرفتها بها في (الصّابري)، صارت أهدأ مع أن القلق لم يغادرها، بل لعله أصبح أكثر تأججاً،

صارت أكثر صمتاً، تبرق الأسئلة في عينيها ثُمّ تختفي فجأة، وتسقط في أعماق أعماقها حتّى صارت مثل مغارة مكتظة بالطلاسم، يتجمع الحزنُ في عينيها ويتلبد، وكلما ذكرت أمامها أبي يثور في عينيها الغضب والندم، الشوق والقرف، أرى قلبها المكسور يناديه، يتودد إليه، يتوسله، فيقرأ له عقلها المُكابر مجلدات الهزائم معه، تتراجع، تتقوقع داخلها، تتكوم في زاوية مظلمة كأفعى عجوز قهرتها الصحراء القاحلة فاستسلمت للموت في ظلِّ صخرة ناتئة، تنكفئ إلى ذكرياتها، وتنكص هاربة إلى حياتها وهي طفلة ومراهقة وشابة، تُفتش بهستيرية بين طيات كيانها عن بذور فرح يمكن أن تصبح مشروع أمل لغدٍ أفضل، فلا تعثر سوى على ذرَّةٍ فاسدة، يبست بفعل ظروف التعرية، ونخرها سوس البعاد، حينها تقف على حافة قلبها المُجعد وتسقط في قرار لُجّة الأحزان، تُصارع أمواجها العاتية لأيام ولياليٍ، بينما تتسلل في داخلي أنا وجعاً فوق وجع، وأحسد حي بن يقظان على تفرده فأتمنى أن أكون مثله دون أن يعثر عليّ (آساله)، ومثله.. كنتُ أتمنى أن لا يربطني بالأمهات سوى حليب ظبية، ولا بالكائنات الحية سوى مجموعة حيوانات هي أفضل كثيراً من البشر، بل وأرقى وأعظم، فعلى أقل تقدير أنا ملكها وسيدها والمتفوق الوحيد بينها.

الأمومة والأبوة قرار صعب لا يتخذه بسهولة سوى السذج أو المتهورين أمثال أبي وأمي، غرساني في ثرى الحياة، أبي كان البذرة وأمي كانت الأرض، ونسيا أن البذرة لكي تنمو صحيحة لابد لها من الماء

والسماد والرعاية من الآفات، تركاني للظروف كأنني عشبةً حولية ترتوي بصدفة من السّماء، وتنمو بصدفة من الحياة، وتبقى وتستمر أيضاً بصدفة من الظروف، قد تُصبح لقمة سائغة في فم حيوان جائع ، أو تدهسها أقدام قطعان عابرة هائجة، أو حتّى تذوي وتنتهي وحيدة دون أن يمرّ بها أحد، أو ينتبه لوجودها مخلوق .

لا أذكر أني نظرت إلى أي منهما كمنتهى القسوة واللامبالاة، أو كمنتهى الرّحمة والحنان، كان وجودهما مُهماً في حياتي مهما كانا أنانيان، كانا عمودي البيت الذي يحميني من الرياح الهوجاء والعواصف في الخارج، من الغرق في الوحل أو الضياع وسط الغبار أو الضباب، برغم أنهما يُغضباني فقد كُنتُ سعيداً بطريقة ما حين يضمني البيت معهما معاً، كنتُ أجلس في الركن أنظر إليهما برجاء، مبتهلاً أن تتوقف العواصف عن العبث في بستانيهما، عن محاولاتها الحثيثة لاقتلاع جذورهما غير الثابتة وغير الراسخة من الأرض، لم تكن السّماء دائماً مفتوحةٌ لدعائي، فسرعان ما كانا يستسلمان بسهولة لعبث الريح، يهتزان، ويتصادمان مرّةً بعد مرّة، حتّى تهشَّمت روحيهما وسقطا في نهاية الأمر على رأسي.

وحده جدِّي من عشت في كنفه سعادة وفرحا ودلالا وإجلالا، كنت في نظره الحفيد المدلل، أميره الذي يتربع وحده على عرش قلبه، حين أطلب شيئاً يسارع إلى القول: شبيك لبيك، خادمك بين يديك،

وحين أبكي يمسح دمعتي وينتقم لي ممن كان له ضلع أو أضلاع في إدرار دموعي، وحين أناديه في أية وقتٍ وأي مكان، يطير إليّ ولو كان موجوداً في أقصى الأرض، يستقبلني بوابل قبلاته وكأنني غبت عنه سنيناً، ويحضنني طويلاً وكأنني سأغيب عنه الدهر، حتّى سار عقل الطفل في داخلي يستغل ذلك في تحقيق مآربه، فسرت أبالغ في طلباتي ويغلبني هو بالمبالغة في تلبيتها، صار الطفل في داخلي جنرالاً له ملامح هتلرية، يرغو ويعربد ويأمر ويطغى، امتهنت في بعض الأحيان التلفيق والكذب والادعاء، وكنت أراه لا يتريث ولا يتحقق، بل يسارع كجندي أقسم على الولاء والطاعة، إلى البطش بمن أدعيت بِأنَّهُ آذاني. كان الأحرى بأي طفل آخر أن يُحب جدَّاً مثل جدِّي، بل يعبده، ويُكبلُ لأخر عمره بجمائله ومننه، أمّا أنا فلم أفعل.

حين خرجنا من ليبيا بجوازات سفرٍ مزورة، ظلَّت صورته معي لم تفارقني لحظة، شعرت بأنني قد أُسقطتُ من على العرش، وبأني فقدت مملكتي التي كُنت أميرها المُهاب فصرتُ طريداً خارج حصونها المنيعة، كنت أبكي طالباً العودة إليه أو الاتصال به، غير أني في تلك اللحظة كُنت أميراً بلا جند ولا رعية ، ظل نشيجي يتردد في السيارة من بنغازي إلى الحدود المصرية رغم كل محاولات أُمِّي وخالي لتهدئتي أو تخفيف مأساتي، وحده النوم كان يأخذني في رحلات قصيرة حين يستبد بي التعب.

بتغير الأماكن والوجوه والكلمات بدأ قلبي يتغير أو بالأحرى يتأقلم، فقد تعبت من البكاء الغير مجدي والتوسل والرجاء المفتقدين للآذان الصاغية، تدريجياً بدأت استغني عنه، كان خالي طوال الطريق إلى العراق، وأيام استقرارنا في الموصل لا يتوقف عن رشِّ مبيدات حبي لجدي فوق خضار ذاكرتي، لكنني لم أكرهه كما أراد خالي، ولم أعد أحبه أيضاً، كل ما في الأمر أنني نزعته بسهولة من قلبي كما تُنزع الشعرة من العجين ، ووضعته في مكان ليس بقصر المحبة ولا صحراء الكراهية، مكان لا أراه فيه ولا يراه فيه أحد في قلبي، قذفت بصوره خارج حنيني الدائم لطفولتي، وأشحت بقلبي عن كُلِّ صور عطفه عليّ، فعلتُ كما أراد خالي، كشفت له عن عنقي كما يفعل ذئبٌ بليد يتدحرج أمام قطيع الذئاب ببلاهة دون أن يكفَّ عن الأنين.

شيء في داخلي كان يكره ذلك أيضاً، فكان أن نزعت كل صور جدِّي من ذاكرتي، كومتها جميعاً في قرار مغارة نائية ومنعزلة في صحارى روحي، ثُمّ أقفلت عليها بتعويذة لا يعرف سحرها غيري، غير أن بعض تلك الصور كانت من الجسارة بحيث تسللت خارج المغارة، انسابت عبر بعض الشقوق لتصدمني في الدروب وتُسقطني من أعلى هرمي العاجي الذي بدأت أبنيه لنفسي، كنتُ أتسلح بهزائم أُمِّي وخالي، واشعل – مُنتقماً - في صور جدِّي النيران، هكذا أصبحت هداياه التي كان يمطرها عليّ بمناسبة أو بدونها مجرد رشاوي لأكون عبده الذليل، وأصبحت قبلاته التي كان يطبعها على كُلِّ خلية في

جسدي وفي كُلِّ وقت مجرد سرقة واعتداء ، وأصبح حضنه الذي كان يحاول أن يحتفظ بي فيه أطول مدَّة ممكنة مجرد معتقل يرغب في أسر روحي فيه إلى الأبد، وأصبح القلق الذي يُسوّد وجهه حين مرضي مجرد خديعة نتنة، لعبة قذرة كان يرغب بها في البقاء على عروش روحي ، حذفته من حبي، بل من الوجود بأكمله .

(15)

أنتَ شخصٌ لا ينفع فيك عمل الخير، ناكرٌ للجميل.. جاحد.

تلك كانت عبارة أختي لأبي (حبيبة) التي كانت ترددها دائماً كلما أغظتها بسلوكي، كانت تقولها بانهيار تامٍ وهي تبكي، تماماً مثل طفل قضى نصف نهاره يبني قصراً على الرمال، وفجأة تأتي موجة صغيرة وتمحوه عن الوجود.

كانت شخصيتها بالنسبة إليّ مُحيرة، فهي أحياناً تبدو حقودٌ غامضة، وأحياناً كثيرة ودودة طيبة.

عندما غادرت أُمِّي البيت بعد شجار عنيف وغامض مع أبي، قيل لي فيما بعد بِأَنَّهُ تمخض في النهاية إلى أن يرمي أبي يمين الطلاق على أُمِّي، ويقذف بها خارج البيت في ليلة باردة مطيرة، دون أن تتمكن حتّى من ارتداء حذائها، فسارت الليل بطوله حتّى حصلت على سيارة أجرة، نقلتها إلى المزرعة بعد أن قبض سائقها الثمن غالياً، حيث خالتي فتحية وخالي أنور الذي خرج من السجن حديثاً مكتظاً بالألم والشعور بالذلِّ.

كنتُ ليلتها نائماً أعدَّ جسمي وعقلي في الظاهر ليوم دراسي جديد، وفي الباطن لرحلة ممتعة مع أصدقائي خارج (الصّابري)، لم أعلم ما حدث – حقيقة – إلا بعد أن عدتُ إلى بنغازي صيف 2016م، أخبرني خالي بكل شيء، وأكثر، قال بِأنَّ والدي خبأ عني حقيقة الموقف، وصوّر لي بِأنَّ أُمِّي هي التي هربت عندما خلدتُ إلى النوم وتركتني، وبأنَّها قد خانته أيضاً، لم أذكر أبداً بِأنَّ أبي فعل ذلك، صحيح بِأنَّهُ كان غاضباً منها، يرغي ويزبد، يسبّ ويشتم كلما مرّ ذكرها في حديث ما، غير أنه لم يقل أبداً بأنَّها هربت ولا ذكر بأنها خانته، ما أذكره بِأنَّهُ كان يهرب من سؤالي المُلحّ عنها بافتعال شجارٍ، وكمن يفتح بابه لرياح (القبلي) كنتُ أيضاً أنال حصتي من غضبه، فيثير عيناي غبار عصفه، وتنهال على رأسي أوساخ روحه المضطرمة، يدفعني صرير ثورته العاتي إلى أن أحافظ مستقبلاً على وصد ذاك الباب، وعدم محاولة فتحه إلى الأبد، ومع الوقت أقنعت نفسي بِأنَّ أُمِّي هي المذنبة، هي من أثارت غضبه وهي من دفعته إلى الثورة وتطليقها، ورميها إلى الشارع الماطر المظلم في الرابعة فجراً.

كانت مغادرة أُمِّي بداية مرحلة جديدة في حياتي عليّ أن أتأقلم معها، وأصالحها بقدر استطاعتي، انتقلت للحياة في اليوم التّالي – إلى بيت أبي الآخر، كنتُ في الطريق أحاول أن أقتلع في خيالي - عيني زوجته (نورية) التي كانت ترمي في قلبي الذعر كلما ألتقيتها،

واستبدلهما بعيني أمِّي، على الأقل فهما في أغلب الأوقات لا مباليتين، بعكس نورية، التي رفضت أن أناديها بعمتي أو خالتي، قائلة في قرف:

(عمتكْ في عينكْ)

أو:

(خالتكْ في عينكْ.)

وكأن القرابة منها شرفٌ لا ينبغي لأمثالي بأن ينالوه، ما كان يثير عجبي وأيضاً خُبثي هو تبدل شخصيتها تماماً حين يكون أبي حاضراً، فهي في حضوره: حنونٌ ودود، مسالمة هادئة، مطيعة مُحبة، وحين يجتاز عتبة بيتها إلى الخارج، ويصفق الباب خلفه، تتحول إلى وحش، تتقمص جسد (دراكولا) وتغرس أنيابها في رقبتي.

تعلمت مع الوقت أن أبالغ في أثارة غضبها حتّى تبالغ هي في إيذائي، ومن ثَمّ يرسم غضبها وحقدها دلائله على جسدي ركلاً وقرصاً وعضاً، بالطبع كنتُ أضيف بعض الألوان لأزيد من قتامة الصورة لأبي، فأبالغ في البكاء، أو أدعي الإغماء، أو حتّى المرض، وأضُرب عن الطعام.

لهول بؤسي، لم يكترث أبي كثيراً وكأنني لستُ ابنه، أو ربما أنه كان يعرف حقيقة الولد الذي ينتسب إليه، ويعرف أن بعضاً من جيناته الماكرة تسري في عروقي، وربما كان يؤكد لنفسه بأنَّ خير دليل على

خبثي وشقاوتي: ما فعلته مع (زينب) زوجة أبيه، فهي دائماً دامعة العينين مكسورة الخاطر بسبب تصرفاتي وسلوكي، كان يردد دائماً بِأنَّ دلال جدِّي لي هو الذي أفسدني، ويؤكد – على الملأ- بأنني يجب أن أتربى ؛ لذا قد يكون وجد في ما تفعله زوجته نورية بي هو من باب التربية الصالحة التي أنشأت عليها ابنيها محمود وحبيبة، فظلَّ لا مبالياً طوال الوقت، ولم ينظر أبداً إلى قصتي مع زوجته على أنها اضطهاد بل هي صراع بين الخير (زوجته) وبين الشر (أنا).

حين وقفت حبيبة إلى جانبي، وصارت الناطق الرسمي لي، والمحامي الذي تكفل بكل قضيتي مع زوجة أبي مجاناً وبكل حبَ، ظهرت على تصرفاته بوادر تغير، فهو لم يكسر يوماً كلمة لـ(حبيبة)، هي ملكته الأسطورية التي يطيعها ويعبدها، كان يصدق كل ما تقول، وكان يفضلها – بعكس كل الآباء الشرقيين– على ابنه محمود، يدللها دلالاً عظيماً، ويخاف عليها حتّى من أن يأتي رجل غريب، يتزوجها، ويسلبها منه.

كانت حبيبة معلمة تخرجت حديثاً من معهد للمعلمات، قالت أمها مرّةً عنه وعنها بِأنَّ النجاح لم يكن ليحدث، ولا كانت حبيبة لتُصبح معلمة لولا وساطة أبي وجهوده، وبرغم أن حبيبة كانت تنكر ذلك، وتغضب منه وتبكي، إلا أن كلمات أمها التي لم يفعل أبي شيئاً لإنكارها، ظلت تُطبق على رقبتها وتخنقها كأطواق العبيد، وكان ذلك

كله لصالحي، ففي المقابل، ظلت حبيبة - كالعبيد أيضاً - تمسك بمظلة مغزولة من ريش المحبة فوق رأسي، تقيني بها من قيظ الحياة في بيت أبي الآخر، كانت أحياناً تطرح نفسها فوق البرك والمستنقعات التي تشُقُّها (نورية) لي ؛ لتجعل من نفسها جسراً أعبر فوقه إلى بر الأماني، ظلَّت تزعق مفزوعة في وجه أمها، مثل طائر تهاجم عشه الأفاعي، وتتكوم فوقي درعاً يتلقى بطيب خاطرٍ سياط أمها عنِّي، وفي أغلب الأحيان، عرشاً أتربعُ فوقه سلطان زماني .

طوال فترة غياب أُمِّي، كانت (حبيبة) أيضاً هي مصدر دخلي المادي الوحيد، لم أكن أطلب من أبي مصروفاً، ولا هو فكَّر فيما إذا كنتُ أحتاج حتّى إلى قرطاسية أو وجبة إفطار في المدرسة، ربما كان يعلم بِأنَّ (حبيبة) تفعل ذلك، كانت تقتطع جزءَ من مرتبها، وتصرفه عليّ، كلما مددت يدي إليها، تعطيني وبسخاء، فلم أشتهي يوماً حلوى أو طعاماً أو شراباً، حتّى أنني كنتُ – آخر الأمر- أجد فائضاً مادياً معي لشراء السجائر بدلاً من التقاط أعقابها من على الأرض، أو الاضطرار إلى استدانتها من (مرعي)، بل إنني صرتُ أشتري بعضها لصديقي (علي)، بعد أن لاحظت أن (مرعي) بدأ يستغل حاجة (علي)، ويحاول أن يذلَّه بتلك الحاجة.

بالطبع لم تكن والدتها (نورية) راضية عما تفعله، كانت توبخها، وفي حضوري- قائلة:

أنتِ تنفقين مرتبكِ على (فرّخ حرام)، هذا لا يجوز.

فكانت (حبيبة) ترد عليها ساخطة وهي تنظر إلى أمها نظرة هائلة الكلام، رهيبة المعاني:

(فرخ الحرام) هذا، أفضل عندي من كثير من البشر.

وقفت (حبيبة) إلى جانبي إلى آخر نفس، جعلت من قلبها المكلوم جندياً مخلصاً يقف في وجه أمها، ويقاتل بضراوة وبسالة ، حتّى أني تصورت – في كثير من الأحيان – بِأنَّ نورية ليست والدتها حقيقة، أو أنني بالفعل طفلٌ أعجوبة، لا يوجد في الحياة مثيل لي، ولا ينبغي أن أعامل إلا بالتعظيم والإجلال والحماية المُفرطة.

في المدرسة كانت هي سندي الأول، ومنذ فصلي الدراسي الأول كانت هي من يُشرف على امتحاناتي، فكانت توضح لي ما غمض منها، وتجيب عنها، وأحياناً يبلغ بها التحدي والتصميم إلى الجلوس إلى جانبي في الدرج، تتناول قلمي وورقة إجابتي، وتجيب عن الامتحان بدلاً مني، لم تكن تحتاج إلى ذريعة تتذرع بها لعمل ذلك، كأن تدعي بأنني مريض لا أستطيع التركيز، أو أنني مشلول لا أستطيع الكتابة، كانت تقوم بذلك أحياناً استقواءً: أليست هي ابنة الرائد عبد الحميد محمود؟، وأحياناً بدافع المصلحة المشتركة مع بعض المعلمين

والمعلمات، من قبيل (أخدمني نخدمك.. ساعدني لأساعد أخي، وسأساعدك لتساعد من يهمك أمره في المدرسة).

وصلتُ إلى الصفِّ الخامس الابتدائي دون أن أحتاج إلى أن أتعلم لأجتاز السنة الدراسية، وما حاجتي إلى العلم وأنا أحد أحفاد محمود فايز أكبر تجا ر بنغازي وأكثرهم ثراءً؟.

طموح (حبيبة) وجدِّي وربما أبي لحصولي على الشهادة لم يكن لشيء إلا للتباهي والتفاخر وربما لاستغلال الفرص، الشهادة في رأيهم هي مجرد مظهر لا قيمة له ، وثيقة براءة من أية نقيصة قد ينظر بها إلينا الأعداء والحُساد، قد تُصبح يوماً درجة إلى سلم وظيفة كبيرة في الدولة، وقد تُصبح وسيلة لكسب ثقة الأخرين واحترامهم، كان جدِّي يُردد دائماً:

لا تظن بأن من يحملون الشهادات الكبرى في البلاد هم أهل علم، صدقني يا بني أنا أعرفهم، إنهم مجرد ببغاوات جوفاء، عجول كعجل السامري لها خوار ولا فائدة منها، يخدعكَ لمعانها الخارجي، وهي في الواقع فخٌّ ونقيصة، بل وخطيئة أيضاً.

حبيبة – وإن أنكرت – تعتبر أيضاً التعليم مجرد ضياع للوقت، ولو كان بإمكانها فتح مدرسة لمنح الشهادات الدُّنيا والعليا لمساعدة النَّاس على الحصول على ما يريدون، وأن يصلوا إلى غاياتهم بأقصر الطرق

وأسهلها لفعلت، ومقابل ذلك، لن تورط نفسها بأخذ مقابل مادي قد يجعلها في عيون النّاس راهباً من رُهبان أوروبا في العصور الوسطى، هي لن تفعل ذلك إلا لتثبت قدرتها على الفعل، وتؤكد إمكانياتها في التأثير، أجدها معي في كُلِّ المواقف، حتّى تلك التي أكون فيها ظالماً.

وبرغم كل ما فعلته (حبيبة) لأجلي إلا أن شيئاً في داخلي كان ينفر منها، كان يمقتها، لم أشعر بالارتياح التّام لها أو لأفعالها، كانت نفسي مقبوضة منها على الدوام، حتّى أنني أشعر حين تبالغ في حمايتي بالتقزز والقرف، وكأن حمايتها أصبحت في حد ذاتها حصاراً، وفي أحيانٍ أخرى أشعر بأنَّها لم تكن تفعل ما فعلته معي ولأجلي بسبب حبها لي، وشفقتها عليّ بقدر ما كان بسبب كُرهها لوالدتها وحقدها عليها، أليست والدتها هي السبب الرئيسي في رفض زواج حبيبة من حبيبها الذي تقدم إليها مؤخراً ومراراً، بحجة أنه فقير ولا يستطيع تأمين الحياة اللائقة بابنتها؟ أليست هي التي تسببت – وبطريقة ما – في انحراف سلوكيات أبي نحو المؤسسة الزوجية، وانخراطه في علاقات مشبوهة، مستمرة وكثيرة – مع نساء أخريات؟ أليست هي التي يتردد دعاؤها حولها في كُلِّ وقت بأن يحفظ الله لها (محمود) دون أن يطرأ على بالها أن تقسم من ذاك الدعاء قطعة صغيرة لقلب (حبيبة) الجائع، أو أن تُخصص سحابة صيف لروح (حبيبة) المتصحرة ، أو تعلق في أذنيها كلمة حبّ صغيرة، أن تخصص

لها نتفة صغيرة من أحجبتها وبخورها المُحشَّد للجنِّ والعفاريت المترصدة بمحمود؟.

ألا يمكن أن يكون خنوع (نورية) لأبي – ذاك الخنوع الذي تأباه روح (حبيبة) لأبي هو سبب خفيّ في كراهيتها لأمها؟، فلم يحدث إطلاقاً أن اعترضت (نورية) – بصوتٍ – على عدم إخلاص أبي لها، كانت تقف أمام خياناته المستمرة لها جبلاً من ثلج، تتقبل سلوكه وكأنه أمر طبيعي في سلوك الرجال جميعاً، ولا تأبى لتصرفاته وكأنها ليست زوجته، وحين فرضت أُمِّي نفسها في حياة أبي بلعت (نورية) جرحها وسكتت، غير أنها صبّت جمام حقدها عليّ.

كانت الابنة وأمها تعلقان- بسببي - في معارك حامية الوطيس، حين تكون متفرجاً على معركة أحد طرفيها يهمكَ أمره، عكس ما تتفرج على معركة لا يهمك من أمر طرفيها أحد، ستقول حينها عبارة أُمِّي (فخار يكسّر بعضه)، وهذا كان شأني معهما أغلب الوقت .

في بعض الأحيان كنتُ أشفق على (حبيبة)، وأشعر أحياناً بتأنيب الضمير بشأنها، كنتُ على وشك أن انتهج سلوكاً جديداً لأجلها، سلوكاً قائماً على الصبر والتضحية، غير أنني عدلتُ عن قراري حين فاجأتني كفٌّ (حبيبة) يوماً وهي تستقر على خدي، كانت صفعتها مباغتة، وصاعقة ولغير ما سببٌ حقيقي، فأنا لم أفعل شيئاً سوى أن اقترحتُ عليها أن تهرب مع حبيبها المرفوض، وتعيش حياتها، برغم صغر سنِّي

إلا أنني كنتُ أقرأ قلبها دائم الشوق والحنين إليه، ويأسها من الحياة في ظِلاله، صرخت في وجهي - بوجهٍ يُشبه وجه أمها - بعد الصفعة قائلة:

أتحسبني مثل أمكَ يا ابن الساقطة.

أصابت قذيفتها موضع بذرة حبها الضعيفة في قلبي ومزقتها أشلاءَ، عاد التصحر إلى روحي من جديد، تصدع قلبي من ضربتها وتفتت في انتظار اعتذارها، في انتظار أن تشرع قلباً أبيضاً وتتأسف من لسانها الزلق، لكنها لم تفعل، ولم تفعل إلى هذه اللحظة.

(16)

كانت مهمتي الخارجية الأولى بعد عودتي إلى بنغازي هي مراقبة بعض الشخصيات المتواجدة في منطقة (الصّابري)، والتي يعتبرها التنظيم من الصحوات، رصد نشاطاتهم وتحديد أماكن وجودهم، وتقديم تقارير عنها لخالي الذي أصبح يقود فرقتنا الآن، في الحقيقة قد ابتهجتُ للمهمة، فهي تحررني، وتمنحني فرصة للتعرف على أحوال المكان الذي عشتُ فيه جزءَ من حياتي، وأكثر ما كنتُ أريد الاطلاع عليه هو حقيقة القِصَّة التي رواها لي أحد أبناء (الصّابري) المنظمين حديثاً إلينا حول (منال) زميلتي في المدرسة ذات الشعر المهمل المنكوش.

الخوف من ردة فعل خالي، ومن سخرية أُمِّي، ومن غيرة سميرة، وأيضاً من شكوك الأخرين جعلني أتعلم أن لا أجترَ ذكرياتي، ولا أسأل عن أشياء كانت تبدو لي غامضة، ولا حتّى أذكر أشخاصاً لا ينتمون للمكان الذي نحن فيه، فصارت ذاكرة طفولتي تجرَدُ نفسها بنفسها، تتآكل كجدران جيرية في مواجهة الأعاصير، تفرّ منها الصور والأسماء والمواقف التي لا تُطلب باستمرار كسجناء القلاع المنسية، تحرق الملفات المركونة والمهملة كبضاعة منتهية الصلاحية ، غير أن (منال) لم

تغب عن ذاكرة طفولتي، ظلتُ تحتفظ بمكانها بكبرياء أميرة ترفض التنازل عن العرش، وتُلحّ على طرق باب وعيي وانتباهي بعناد طفلٍ يرفض الفطام، كنتُ أواجه رسوخها في ذاكرتي أحياناً بسكاكين الاستهزاء، وأحياناً بدبابيس الحيرة، وأحياناً أخرى ببعض الأفكار البهلوانية.

كانت آخر مرّة سألت فيها عنها منذ سنة تقريباً، حين انضم إلى التنظيم أحد أبناء (الصّابري) وكنتُ أعرف والده، تذكرته على الفور حين قدم نفسه لي باعتزاز- كما لو كنتُ جاهلاً لا أعرف أهل الحي الذي عشتُ فيه طفولتي - قائلاً:

أنا حسين ابن فتحي بو شيشة.

كدتُ أنفجر في وجهه ضاحكاً وهو يردد اسم أبيه ولقبه بكل تلك النبرة المتباهية المتفاخرة، فأنا أعرف والده جيداً، وأذكره بالجودة ذاتها، صورته ما تزال خالدة في ذاكرتي خلود الموناليزا في عالم الرسم، فقط كان أكثر السكّرين شهرة في حينا، كان لا يفيق أبداً، ولا يرتوي من الخمر أبداً، في أغلب الأوقات نجده ونحن عائدون إلى بيوتنا، أو يجده أحد غيرنا مرمياً في ركن ما وقد غلبه النوم ، فراح يشخر عالياً يسرح الذباب في فمه المفتوح ويمرح، وقد سقطت قنينة الخمر بجانبه فارغة أغلب الأوقات، تلك القنينة هي التي منحته لقب (بو شيشة)، أذكر بِأنَّ رائحته كانت دائماً عفنة جداً، خمر و وقيء وبول وأحياناً

براز، حتّى إننا امتنعنا عن حمله من الطريق إلى بيته، بل صرنا نتجنب الاصطدام بجسده في الدروب، فكُنّا نغير طريقنا كلما صدمتنا أسراب الذباب وهي تطنّ فوق وجهه في ركنٍ ما.

لم استطع أن أكبح جماح استهزائي كثيراً، غلبتني ابتسامة ظهرت على ملامح وجهي، تجهم وجهه الذي كان مشرقاً، ومثل طالب قُبض عليه يغش راح يتوسلني أن لا أخبر أحداً ، وجدتها فرصة بأن أحصل على كُلِّ المعلومات التي أريدها دون أن أخاف تأويل أسئلتي أو تحريفها وتشويهها عن مرادها، أخاف أن أتهم بالحنين والعشق والغرام، أخاف أن يُحتمل ارتدادي بسبب فتاة مرتدة ؛ لذا كانت أسئلتي عن (منال) لا تخرج عن بُنية التهكم، كأن أقول:

حيّنا ليس فيه سوى البنات (المشتشتات) مثل (منال).

ثُمّ أوجه سؤالاً مُباغتاً إلى مُحدثي قائلاً وأنا أراقب تعابير وجهه:

هل تذكرها؟

وحين يرد بعد أن يزمّ شفتيه مفكراً ويقطب جبينه بـ (لا)، أغير الموضوع على الفور، لا أترك له فرصة للتسلل إلى داخلي، أقف على عتبة وعييه ، أخطفه على خيول الكلام وأحطُّ به في ديار حكاية أخرى، وأسئلة أخرى، أقف فوق تلة ظنونه وأقطع الطريق عن قوافل الشكِّ.

أصبح حسين فرصتي للإجابة عن سؤالي المعلق، دون أن أضطر إلى انتحال شخصية (سوبرمان)، وإن لم استثن تماماً هذا الـ (حسين) من التأويل والتحريف والتشوية فقد صرت على الأقل أأمن سخريته واستغلاله، صرت أقبض في يدي على مفاتيح فمه المغلق، فأخبرني بسرور المدين الذي يسدد دينه لمرابي طال انتظاره عن كُلِّ ما يعرفه عنها، قال بأن والدها قد أخرجها من المدرسة، لم يسمح لها بإتمام تعليمها، و بعد أن زوّر عمرها الحقيقي ليخبر القانون بأنَّها ليست قاصراً، زوجّها من مقاول بخيل، طاعنٍ في السن، حوّلها إلى آلة تفريخ، فأصبحت تحبل بعد انقضاء نِفاسها الأول مباشرة، حتّى صار لها خمسة عفاريت في أربع سنوات زواج، آخر الأمر وجدها زوجها وقد شنقت نفسها بوشاحها على قضبان نافذة غرفتها.

حين أخبرني بذلك انهار شيء في داخلي، شيء لم أقف على ماهيته وتضاريس شكله، شيءَ خلَّف في قلبي حُرقة، وفي روحي غصّة وندماً، سألت نفسي ساخراً منِها حين خلوت بها وعجزت عن سلخ الحرقة والغصّة والندم من كياني: لماذا كُنت كثير السؤال عنها؟ لماذا حزنت حين عرفت ما حدث معها وما مصيرها؟ أتراني كُنتُ أحبها؟.

جلست في غرفتي، تناولت دفاتر طفولتي المغبرة من بين حُطام ذاكرتي الموبوءة بالحذف، تناولت مكبراً منحته لي أسئلتي الحائرة، ورحت أفتش لها عن إجابة.

كانت (منال) دائماً مثار سخرية، تماماً مثل أبو شيشة والد حسين، والسبب الظاهري هو شعرها المنكوش المهمل على الدوام، غير أني اكتشفت سرّ تلك السخرية التي تلاحقها على الدوام، ليست بسبب شعرها، فقد كانت بعض زميلاتنا اللاتي لم أعد أتذكر أسمائهن، كلٌّ لها نقيصة وعيب يثير في نفسي الضحك والسخرية دون أن أجرؤ على رسم ابتسامتي للملأ ، إحداهن كانت سمينة بشكل يذكرني بعجلات الشاحنات الضخمة، وأخرى كانت سوداء، أو عرجاء، أو عوراء، الأخرى كانت دائماً قذرة الملابس نتنة الرائحة، غيرهن كانت تملك فماً يشبه فم غوريلا، واسع وبأسنان صفراء تبرز للأمام وكأنها كماشة، الشيء المشترك بين هاتيك الفتيات اللاتي لم يكن يسخر من عيوبهن أحد أنهن كُن سليطات اللسان، قبيحات الألفاظ، إذا استهدفت إحداهن أحداً بقصفها فهو لا محالة هالك، أمّا (منال) فلم تكن مثلهن أبداً، كانت هادئة، ومنطوية، حزينة ودامعة العينين في أغلب الأوقات، وكان ذلك هو السبب الرئيسي الذي كان يجعل الآخرون يسخرون منها؛ تلك كانت طبيعتنا الانهزامية التي ورثناها أباً عن جد: ساحات انتصارنا هي القلوب الوجلة، والنفوس الخجلة، والشخصيات الضعيفة، أمّا تلك الشخصيات القوية، المتنمرة، الصلبة، القاسية، فلن يجرؤ أحدٌ على الاقتراب من ساحاتها.

لعلي إذن كُنت دائم السؤال عن منال لأني كنتُ أشفق عليها من حياة ناضحة بالألم؟ أم لأن منال كانت – بطريقة ما- تشبهني؟.

الموت على أية حال بوابة الخلاص الأخيرة للمعذبين، طريقٌ مختصر نحو الله، درجة أولى نحو الصراط المؤدي إلى الجنّة، هذه هي قناعتي التي رسّخها في عقلي خالي أبو البراء ، فلماذا لم أفرح لها حين أرغمتْ (منال) الموت ع لى تخليص روحها عبر وشاحٍ علقته في قضبان نافذتها؟

أرهقتني الأسئلة والحزن، فغلبني النوم، ورأيتها مرةٌ أخرى في المنام وقد أصبح شعرها حريرياً ناعماً يغطي بطوله وكثافته الأفق وهي تقف في الهواء بين السّماء والأرض، تنظر إلى الأعلى وإلى الأسفل دون أن يستقر نظرها على نقطة معينة، تقهقه أحياناً وأحياناً تبكي بمرارة، وفجأة تشتعل في جسدها النيران، فتصبح نجمة، وتعود تشتعل وتسقط على الأرض كومة رماد، نهضت مفزوعاً حين مدَّت لي يدها المشتعلة وأنا أتصبب عرقاً وأهذي باسمها.

لازمني الحزن أياماً، وحين رأي أبو فارس حالتي بادرني بالسؤال:

ما بكَ يا أخي؟ أخبرني..(فضفض) عنك.

أبو فارس أشبه بالمنوَم المغناطيسي، حالما يجلس إلى شخص فإنه يُعتق لسانه من الصمت، تلك ليست فكرتي وحدي، بل هي فكرة كل من عرفه ؛ لذا كنتُ أتحاشاه كثيراً، غير أنني في تلك المرة لم أهرب منه أو أتركه كما كنتُ أفعل عادة، كنتُ أحتاج إلى شخص أتحدث إليه،

شخص يأخذ عني أحمال الحزن والغضب، ويساعدني في فهم أحجية روحي، أخبرته بقِصَّة (منال) وتفاصيل حلمي بالدقة، فقال وهو يربت على كتفي:

لا عليك، لم تكن (منال) مخطئة حين اختارت العبور إلى الآخرة بأقصر الطرق، غير أنها للأسف أخطأت في اختيار الطريقة.

غادرني وترك أسئلتي معلقة عند بوابة روحي، سقطت كلماته في قلبي جلموداً فوق مجري أفكاري لحظات، كان يجب – حينها - أن تحفر أفكاري لها حفرة وتتجمع في بحيرة هادئة أو ربما مستنقع نتن، غير أن الخبيثة قد جُبلت على الانحراف، سالت على الضفتين، حفرت لها مجارٍ متعددة، امتزجت بالطين والقاذورات، ثُمَّ هدرت سيولاً تجتث حبّ الحياة من قلبي.

سأبحث عن إجابات صادقة الآن، وبكل حرية، سأعرف مصير (منال) ومصير أطفالها الخمسة، وربما سأعود بهم، إن صدق ابن أبي شيشة الرواية عنها، سأعود بهم وأشرف على تعليمهم وتربيتهم استجابة لاقتراح أبي فارس، وربما سأربط زوجها العجوز إلى حزام ناسف، وأدفع به إلى العدو محتفظاً بمفتاح انتقاله إلى يد الموت بيدي، وحين يصبح في المكان المناسب أضغط على الزر في يدي وأضرب عصفورين بحجر واحد.

وافقني أبو فارس مهللاً ومكبراً للفكرة، ابتسمت لحماسه دون أن أتمكن تماماً من إزاحة السؤال الذي علق في عقلي وصار يضايقني، ظل محشوراً في عقلي مثل قطعة لحم قاسية بين الأسنان: ألن أكون بعملٍ مثل ذاك أمنح هذا العجوز الشهادة؟ وأدفعه عبر الصراط إلى رحمة الله، إنه لن يعلق بين السّماء والأرض مثل (منال)، إنه سيسقط في أيدي حور الجنّة ، سيتمرغ في مسك ثراها، وينهل من شرابها وأطايبها، سيجلس بقرب أبي الدرداء الذي فجّر نفسه بحزام ناسف قبل أشهر في بوابة عسكرية قرب دمشق، ويتسامر مع أبي حنيفة الذي سلك السلوك ذاته قبله في بغداد، ويخلد بقرب أبي الحارث الذي فجّر سيارته المفخخة وهو يقودها قبل أيام في معسكر للجيش في بنغازي.

ركبت السيارة، انطلقت يقودها أبو فارس إلى (الصّابري)، طوال الطريق كان يوصيني بإجادة التنكر والحرص على أن لا يتعرف أحدٌ على شخصيتي، وعدته أن أفعل بلساني، أما عقلي وقلبي فقد كانا يستمتعان بفكرة أن يتمكن سكان منطقتي من معرفتي، تخيلتُ ميلود (الهبل) يسبقهم إلى تلك المعرفة، فيدور في الشوارع وهو يصيح بأعلى صوته مُعلناً عودتي، وأنا أتبختر خلفه، ممتطياً جواد خالد بن الوليد في اليمامة، وألوح بسيف الحجاج بن يوسف للعابرين، على رأسي أرتدي قبعة هولاكو، وفي عيناي تضطرم نار الأخدود، ينجو من أراد النجاة ويموت من أراد لنفسه الموت.

كانت محطتي الأولى بيت جدِّي، كان مقفلاً ومهملاً، بدا أنه مهجورٌ منذ فترة ليست بالقليلة، طرقنا الباب، وحين لم يستجب أحد، قفزنا من خلال السور إلى الداخل، كانت الحديقة في حالة مزرية، الاهمال يكاد يجعل منها غابة للحطب اليابس والأعشاب الجافة، القليل من الأشجار ما يزال يقاوم العطش ويحتفظ بخضرته، تقدمنا فاكتشفنا بِأنَّ الباب الخارجي لمبني البيت قد تعرض للكسر، دخلنا، فلم نعثر داخلها على شيء، اختفى كل أثاثها حتّى المصابيح المعلقة في السقف، خرجنا تحيط بي علامات استفهام كبيرة وكثيرة لخصها أبا فراس في سؤال وحيد:

أين ذهب الجميع؟

في الشارع وجدنا العم صالح واقفاً بوجه يتصارع على ملامحه الخوف والقلق والغضب ، بادرنا بالسؤال حازما مضطرباً، وكأنه قد تعرض هو للاعتداء:

من أنتم، وماذا تفعلون هنا؟

في الحال دسّ أبو فارس يده في جيبه، تصورته يقبض على مسدسه، وسيشهره في أية لحظة في وجه الرجل، وربما سيرديه قتيلاً فوق رصيف الشارع الخاوي، فبادرت بالقول اعترض خطته الواضحة:

مرحباً عم صالح.. ألا تذكرني؟...هذا بيت جدِّي، جئت لأسأل عنه.

جدك؟

نعم، جدِّي محمود فايز، أنا حفيده زياد.

تهلل وجه عمي صالح، وابتسم، فتح ذراعيه وحضنني وكأني أحد ابنائه:

آه.. زياد، أين كنت، لقد ظنك جدك - رحمه الله - قد مت، ووالدكَ المشلول يبكيك ليل نهار .

بزغ في قلبي كوكب، نصف أضاء بابتسامة، والنصف الآخر أظلم بحزن، توارى الجرح خلف العتمة مقتنعاً بالشعور بالعدالة.

تجهم وجه العم صالح فجأة حين أخرج أبو فارس مسدسه للعيان، ارتعش صوته وأطرافه، ونزّ العرق من كُلِّ خلية في جسمه، تلعثُمّ وهو يقول:

لقد اكتشفت الشرطـــ

بتر عبارته، ثُمّ عاد يصححها وهو يحاول السيطرة على ارتباكه:

لقد ظهر أن وراء الحادث عمل تخريبي..

حقاً؟

كان استفساري شهادة تأمين انطلق منها ليروي كل ما حدث، كانت تعابير وجهه تعود إلى الارتياح كلما تحدث، وكأنه كان يشعر بِأَنَّهُ أصبح شخصاً مهماً لنا، وأننا لن نتخلى عن كنز معلومات عثرنا عليه، فكان يضيف لحديثه عبارات يغري بها فضولنا، ويلغي بها قرار إعدامه الذي رآه يُكتب أمام عينيه كلمةً كلمة، وحرفاً حرفا، فكان يقول: (ليس هذا كل شيء يا ابنائي) أو (ما يزال في جعبتي الكثير) أو (أكثر من هذا يا شباب) أو يحاول الوقوف في صفنا متملقاً، مُدغدغاً شعور العُجب فينا، فيقول (البلاد ضاعت بعد أن تركها الشباب الواعي مثلكم) (أنتم أملنا اليوم).

تحدث العم صالح عن أشياء كثيرة، ربما كان أغلبها كذباً بالنسبة لي، كنتُ أشعر بِأَنَّهُ يخدعنا كلما زال تدريجياً الارتعاش من صوته، أو عاد الإشراق إلى صفحة وجهه، تحدث عن سبب الحادث، وقال بِأَنَّ أبي والشرطة قد ظلموا خالتي فتحية ووجهوا إليها الاتهام، بل وقاموا بسجنها عدَّة سنوات، ولم تخرج من السجن إلا بعد ثورة فبراير المباركة، حين هجم النَّاس على باستيل بنغازي، سجن (الكوفية) وحرروا المساجين الذين كانوا موجودين فيها:

هل أنت متأكد أن خالتي فتحية قد خرجت من السجن؟ أقصد، هل رأيتها بعد ذلك؟

تلعثُمّ وهو يقول:

الحقيقة أنني لم أرها، ولم أقابلها، ولكن الأكيد أنها خرجت، فالسجن قد أصبح خالياً بعد ذلك.

أنا على يقين الآن بِأنَّ أبي كان وراء سجن خالتي، لابد أنه وجد في بقائها وحيدة فرصة للاستحواذ على بقية المزرعة.

أذكر أن جدِّي كان يبدي دائماً انزعاجه من بقاء بعض الفدادين في ملك جدِّي لأمي، وبرر ذلك بِأنَّ هؤلاء _ أهل أُمِّي - ليسوا أهلاً للملك، ولا للثروة، كان دائم الطمع في نيل تلك الفدادين بعد أن أصبح جُلُّ المزرعة ملكه، بعضها حصل عليه بالقوة، وبعضها تحايلاً، والبعض الآخر تنازلاً من جدِّي لأمي له نظير بعض الأشياء الصّغيرة .

الطريف في الموضوع أن جدِّي لأمي وجدي لأبي كانوا أبناء عمومة، يلتقيان في الجدِّ الرابع، غير أن سوء حظِّ جدِّي لأمي هو الذي أوقعه في الفخاخ التي كان ينصبها له جدِّي لأبي، هكذا كانت أُمِّي تقول حين تذكر أن المزرعة التي يملكها جدِّي محمود هي بالأساس مناصفة بينه وبين والدها، وشيئاً فشيئاً أصبح جدِّي لأمي أجيراً لدى جدِّي لأبي، وأسيراً لرغباته وطموحه.

تُرى أين هي خالتي الآن؟ هل عادت إلى البيت الصغير، الملك الوحيد لأبيها في المزرعة؟ أم أنها خرجت مع الجموع التي غادرت بنغازي؟.

هل لي أن استأذنكما في العودة إلى بيتي؟

سأل العم صالح متذللاً، فوجدت نفسي أطرح عليه سؤالي الأخير الذي جئت من أجله:

والعم السنفاز، كيف هي أحواله؟

كنتُ أريد السؤال عن منال، غير أني لم أجد الجرأة أمام أبي فارس لذلك، أجاب العم صالح وكأنه قد قرأ سؤالي الغائب:

المسكين بعد أن شنقت ابنته نفسها أصيب بالجنون.

وزوجها وأولادها؟

سأل أبو فارس بنفاذ صبر، فارتعش حاجبا العم صالح حين تكلم أبو فارس أخيراً بلهجة شامية واضحة، وقال وهو يُحدق ببلاهة في وجه أبي فارس:

تزوج زوجها بأخرى بعد أسبوع، تعلم بأنَّها تركت له خمسة أطفال وهو دائم الانشغال..

قال ذلك وكأنه يعرف الرجل تمام المعرفة ويعتذر عن خطأ قام به، وأضاف وكأنه على علم بكل ما نريد:

لكن اطمئنا، فالأطفال قد وجدوا في زوجة أبيهم أمّاً ثانية، إنها رحيمة جداً بهم.

لا أصدق بِأَنَّهُ يوجد على سطح الأرض زوجة أبٍ طيبة ورحيمة، كل زوجات الأب هن صورة عن زوجة أبي، حين خلقهن الله نزع من قلوبهن الرّحمة، وغرس فيها الأنانية والقسوة، لابد بِأنَّ أبناء (منال) الآن يمرّون بنفس المواقف التي مررت بها مع زوجة أبي، لابد بأنَّها تضربهم، وتحرمهم من الأكل، ومن النوم داخل البيت، ومن كُلِّ شيء، حتّى الدخول إلى دورة المياه لقضاء الحاجة، فيضطرون إلى قضائها في الشارع أو على سطح العمارة، أو في ثيابهم، لابد بأنَّها تسهر لأجل إعداد الخطط وتنفذها في الصّباح بكل دقة وحنكة، فيقعون في فخاخها، يجلدون بعد محاكمات صورية لا يحق لهم فيها الكلام أو الاعتراض.

وأين هم الآن؟

سأل أبو فارس وهو يعيد المسدس إلى جيبه، فقال العم صالح وهو يرى أمر اعفائه وإطلاق سراحه يُحرر أمام عينيه أيضاً:

لا أدري حقيقة، ربما هاجروا إلى مصر أو إلى تونس.

(17)

في اليوم التّالي لرحلتنا التفقدية للصابري نهضت من فراشي مقبوض الصدر، لم أكن قد نمتُ على الإطلاق، غادرني النوم كما غادرتني كل الأشياء الجميلة، حتّى الدموع جفَّت منابعها، استجديت الليل كثيراً بأن يمنحني سويعةً واحدة أتوسد فيها الأحلام، فلربما زارتني (منال) في المنام، وحكت لي حكايتها الحقيقية، واستذكرت معاملتها لي مبللة بالندم، ولربما سامحتها عن أشياء لم تفعلها، ولربما مسحتُ بيدي على شعرها المنكوش وودعتها بقبلة، لكن الليل كان بخيلاً وقاسياً وأصرّ على أن لا أنصب مشنقتي للشماتة، وأن أتسمر على منصّة قاتمة وأقرر بأن ما حدث مع (منال) كان أقلُ مما تستحقه.

أمضيتُ الليلة أتقلب على فراشي دون أن أفكر في الخروج، لم يراودني – على غير العادة - أملٌ في أن تأتي سميرة إلى غرفتي وتنشلني إلى عالمها اللامبالي، على العكس تماماً كانت هناك رغبة حقيقة في عدم حضورها تقف باعتدادٍ عند عتبة كياني، تفتش طابور الأمنيات الكسيحة المهزومة بحزم غاصبٍ مُنتصر، تقبض على المشكوك في أمرها

وترمي بها في غياهب النفي، ثُمّ تعمد إلى قلبي، تغلفه بغلاف من البلاستيك وتدفنه تحت طبقات ضخمة من الثلج والبرد .

كان اليأس قد استوطن كياني تماماً، وسرَح فيه قطعاناً من الدود والجراد والنمّل تتسابق بجنون في الأكل والتكاثر وتكديس فضلاتها على منافذ روحي الظمأى، وغمائم الاحباط كانت تُمطر قلبي بالوجع، وتذيب عروقي مثل أمطار حمضية، أول أهدافي من عودتي إلى بنغازي تبخر، ها هي (منال) لم تعبأ بعودتي، لم تقم لها يوماً وزناً ولا أهمية، غادرت دون أن تضعني في حسابها يوماً، دون أن تلتفت إليّ.. دون أن تفتقدني.. ودون أن تأمل في أو حتّى تيأس من عودتي إليها، لقد همست في أذنها يوماً وهي تنتظر والدها عند باب المدرسة، وصادف أن مررت بجانبها، عدتُ إدراجي إليها بعدما هزمت ترددي وخوفي، كدتُ ألتصق بجسدها وهمست وأن أتوقع صفعة:

أنتِ جميلة حقاً.

ثُمّ ركضتُ مذعوراً كلصّ تركض خلفه كلاب الشُّرطة الشَّرسة، توقفت بعد أن تأكدتُ بِأنَّ المسافة أطول من يدها ونظرت إليها، خيّل لي بأني رأيت دمعة تنحدر من مقلتيها، في اليوم التّالي والأيام التّالية لم تنظر إليّ أبداً ولا إلى غيري، كانت قد مشّطت شعرها وضفرته في ض فيرة كبيرة مثل حبل البحارة ألقتها على ظهرها وكأنّها تعبر عن استعدادها للإبحار.

الغريب أنها لم تعد مشاكسة شقية، تقمص الهدوء والسكون سلوكها إلى أقصى حد، بعبارة واحدة بدأت (منال) تصبح أنثى، كنتُ على استعداد بأن أثير هذه الأنثى مراراً ومراراً ، غير أنها أخيراً اقتربت مِنِّي وأنا جالس أنقل بصعوبة وجهد ما تركته المعلمة على السبورة من طلاسم، وقالت بنبرة مرتعشة مضحكة:

اسمع أيها التافه.. إذا اقتربت مِنِّي، أو أعدت ما.... ما...ما قلته في ذلك اليوم سوف أخبر المدير عنك.

لا أدري لماذا أحسست بأنَّها – في الواقع- كانت ترغب فعلاً في أن أعيد ما قلته لها؟ امتثلت لتحذيرها لأنَّني لا أطمئن لإحساسي كثيراً، وليس لدي رغبة في التّحدي، فتركتها محتفظاً بنصل الخنجر الذي سددته إليّ أمام زملائي المقهقهين عميقاً في قلبي وعلى مدى عمري كله.

بدا العالم في عيناي تافهاً إلى أقصى حدود التّفاهة، والبشر مجرد كائنات متوحشة أنانية وجشعة إلى الدَّرجة التي غلبت بها أعتى الحيوانات الضارية.

أعتقد بِأنَّ الحياة في الغابة هي أكثر عدلاً مما هي في حياة الإنسان، فالحيوان برغم عدم ملكيته للعقل الذي تميز به الإنسان إلا أنَّ ه يحمل بين جوانحه احساساً بالمسئولية فلا تتخلى أشد الضواري

قساوةً على صغارها وتدافع عنهم إلى آخر رمق، وقد يشعر الحيوان بالحنان والحبَ فتحنَّ ضبع على جديَ ظبي وترضعه، ويشترك الذكر والأنثى في إعداد الجيل الآخر لمواجهة الحياة سوياً وحثيثاً، ويسترجع الأبوان ما في حوصلتيهما من طعام ليطعما صغارهما، إلى آخر ما تفعله الحيوانات بغريزتها ولا يفعله معظم البشر، الحياة بين البشر تتطلب من أي مخلوق كُتب عليه بأن يصبح إنساناً لا حيواناً أن يتخلص من لوثتين في تكوينه: العقل والقلب.

أما القلب فقد بدأت الخطوة الأولى لتعطيل تأثيره، أو لعليَ لم أفعل شيئاً له بإرادتي، ضربه اليأس في مقتل وهو الآن ميت طبياً لا شيء يشير إلى الحياة فيه سوى سريان الدم في شعيراته وأوردته وشراييه، أما العقل فحبّة كباتاجول تفي بكلِّ شيء، وستنشلني – في لحظة - من كُلِّ هذا الضيق.

نهضت من سريري بجوع أسد لم يعثر لأيام على فريسة، فتّشتُ أغراضي فلم أعثر على ما أريد، قلبتُ الغرفة رأساً على عقب، وكلما صادفني الفشل في العثور ولو على نصف حبّة زاد جوعي وغضبي، نهضت أخيراً، امتشقت بندقيتي وغادرت الغرفة بإصرار نسرٍ قرر أن يحصل على السّمكة بأي ثمن، حتّى وإن كانت سمكته في قبضة شبكة الصّياد.

أووه زياد، تعال وانظر من لدينا هنا؟.

بادرني خالي عند مدخل ا لحجرة وهو يربت على كتف شابٍ كان يرافقه، كانا يقصدان قرع باب غرفتي حين فتحت فجأة بابي، أو لعلهما كانا يتجسسان عليَ، لا أدري بالتحديد فقد وجدتهما عند الباب تماماً، نظرت إلى الشاب كان عمره بين الثلاثين والأربعين، لم أستطع أن أحدد عمره بسبب التفاوت الكبير بين لون شعر رأسه ولحيته الأبيض تماماً، وبين لون حاجبيه الكثيفين الأسودين، كان نحيفاً طويلاً غائر الخدين، أسمر البشرة أسود العينين، في عينيه حَوَلٌ خفيف وألفة لم أتمكن وأنا في قبضة الجوع والغضب أن أحدد معالمها أو أعرف مصدرها.

هذا محمود.

ردَّ خالي على سؤالي المعلق في ذاكرتي دون أن أضطر إلى طرحه، ثُمَّ أضاف بنبرة قائد حسم معركته الأخيرة بانتصار ساحق:

أخوك محمود.

عقلي الذي كان بحاجة لحبة كابتجول ليستريح من التفكير لفترة سقط مغشياً عليه، غاب عن الوعي وتركني أدور في دوامة هائلة من الذهول والأسئلة المسعورة النابحة.

ا طالما كان محمود شخصاً غامضاً منعزلاً لا مبالياً، لم أشعر يوماً بِأَنَّهُ فعلاً أخي الأكبر، ولا ذكرتُ بأني نلت يوماً منه نظرة حنان أو

حتّى شفقة وأنا أرزح تحت سياط أمه القاسية، لم يعاملني معاملة الأخ أبداً، لم اسمع اسمي على لسانه أبداً، كان حين يناديني أو يرغب في طلب شيء مني يقول:

هيه..أنتَ؟.

لم أنل منه حتّى صفعة غضبٍ أو غيْرة، لم ينظر إليّ حتى على أنني دخيل، كان يعاملني وكأنني شخصٌ غير موجود، ولم آبه لذلك كثيراً فقد اكتشفت أن ذاك كان هو أسلوبه مع الجميع، لم يكن يتفاعل مع الآخرين إلا بقدر حاجته إليهم، كأنْ يضطر إلى العودة إلى المنزل كل يوم لأن لا مكان آخر يلجأ إليه، ويجد فيه طعامه وسريراً يريح فيه جسده، كان صموتاً، جامد الملامح، ميت النظرات كتمثال، وأعتقد جازماً بِأنَّ ذاك القحط الذي كان يتغلغل في ملامحه قد امتدَّ وسكن عميقاً في كيانه أيضاً، لا شيء داخل أخي محمود - منذ الأزل وإلى الأبد - سوى أشواك صحراوية تدحرجها رياح الظروف بين ضلوع قفصه الصدري.

ألن تعانق أخاك؟.

برقت عينا خالي وهو يطرح سؤاله عليّ، أطرقت لا إرادياً إلى الأرض، كيف لي أن أعانق إنساناً لم أشعر يوماً بِأنَّهُ يحبني فأعبر عن اشتياقي إليه؟ ولا حتّى شعرتُ بِأنَّهُ يكرهني فأعبر عن تصالحي

و تسامحي معه؟ كيف لي أن أرتمي في حضن جسدٍ كان مُحرماً عليّ أن أصافحه السلام؟.

عاد عقلي من غيبوبته، انتصب يدقق ويحلل ويقارن، ويُقدر المسافات بين الحاجات وردود الأفعال دون أن يغفل عن الاطمئنان بِأنَّ القلب ما يزال تحت أكوام الجليد، حقن عقاراً منشطاً للذاكرة الكسول، وراح يطرح الأسئلة، تذكرتُ بِأنَّ آخر شيء فعله محمود هو أنه انظمّ للكلية العسكرية، إذن فهو لابد بأن يكون جاسوساً وعيناً لمن نُطلق عليهم مرتدين، كيف لخالي أن تنطلي عليه حيلة ساذجة مثل هذه؟ ألم يكن يتباهى بذكائه هذا حين قُبض على رشيد، وحكم عليه بالإعدام، بل ونفذ فيه الحكم سريعاً؟.

ماذا يفعل هُنا؟.

كان سؤالي عفوياً انزلق من على لساني سريعاً كقذيفة مدفع، اصطدم بالأرض التي لم أرفع بصري عنها بعد، ثُمّ ارتد ليصطدم بوجه محمود البارد.

لم أسمع صوته الذي لا أذكر نبرته أو قوته أو تأثيره، رفعت إليه وجه طفل جائع استبد به الغضب فسمّم روحي بنظرته الميّتة، شعرت برغبة في الانقضاض عليه، وفي ضربه وركله حتّى يفيق من غيابه السرمدي ويذكر بأني أخوه، بِأنَّ كلينا امتداد لاسم واحد هو اسم

أبي، وبأنّنا نحمل الجينات الوراثية ذاتها، والبصمات التربوية نفسها، كلينا سبح عمراً طويلاً في مستنقع الجهل الأسري، تلوث عميقاً بأوحال الموروث الثقافي الجمعي.

يقولون بِأنَّ كلَّ الجَراح يمكن أن تندمل، وكل ندوب الذاكرة يمكن أن تُرمّم إذا عرف الإنسان الطريق إلى الحُبّ، لكن هل يعرف أحدٌ ما هو الحُبّ حقيقة؟ وأي الطرق تؤدي إليه؟ وهل يمكن أن يُحبّ الأخ أخاه فقط لأنَّه مؤمن بِأنَّ نفس الدَّم يجري في عروق كليهما، أو أن فكرة واحدة أقنعت كليهما؟ والأهم من ذلك كله: كيف للإنسان أن يُحبّ غيره إذا كان هو لا يحبّ نفسه؟ نعم، لم أشعر بِأنَّ أخي محمود أحبّ يوماً نفسه، بعكس ما تُخبرنا ظاهرياً أنانيته ولا مبالاته ؛ وهو لهذا لا يمكن أن يُحب غيره، لن يستطيع الإخلاص لأحد، لا للمؤسسة العسكرية التي انظمّ إليها في الماضي، ولا للتنظيم الذي انظمّ إليه في الحاضر، إنه يتحرك فقط بين الاثنين لأنَّه بحاجة إلى أدوات انتقام: من نفسه ومن الآخرين، وأهم تلك الأدوات هو المال، هو إذن عبدٌ للمال الذي يمنحه الشعور بالاكتفاء والامتلاء والعظمة، بعدم الحاجة إلى القلب أصلاً، ولا لقلوب الآخرين، يا الله ! كم أراه يُشبه جدِّي الآن.

إنه معنا.... أحدنا... صيادنا الماهر المخلص....وقد أحضر اليوم رأساً غالية.

معنا؟ أحدنا؟ صيادنا الماهر المخلص؟ كلها عبارات إطراء لم ترتقِ به في نظري لأكثر من مستوى كلب.

أتريد أن تعرف رأس من؟.

سأل خالي، ثُمّ أضاف دون أن ينتظر إجابتي:

رأس عدو الله، أحد الطُغاة على الأرض بل وأكثرهم شراسة، عدوي وعدوكَ وعدو محمود أيضاً، رأس الرجل الذي شرّد وظلم ثلاثتنا، وظلم غيرنا كثيرين ، الرجل الذي كان سبباً في موت أمكَ....رأس المرتد الطاغية الرائد عبد الحميد محمود فايز.

ثُمّ حشر يده داخل كيس كان يحمله، وأخرج رأساً رفعه في الهواء أمام بصري، وكانت فعلاً رأس أبي.

(18)

استيقظت على صراخ امرأة يتردد في أرجاء الفيلا الواسعة، راح الصوت يغرق ويبتعد ففهمت بِأنَّ المرأة كانت تنزل أو تُنزّل عبر السلم إلى الطوابق السفلية، كان صوتها يظهر ويختفي، يتحول إلى غرغرة كأن صاحبتها كانت تغرق في بركة ماء أو أنها تتعرض للخنق.

هُيأ لي بِأنَّهُ صوت سميرة، قفزتُ من فراشي مسرعاً، فتحت الباب ونزلت الدرج بسرعة، في الأسفل، اكتشفت صدق توقعاتي، فقد كانت سميرة هي صاحبة الصراخ،، كان خالي يجرها من شعرها الطويل المنكوش على بلاط الحديقة الخشن، كانت ملابسها ممزقة وقد برز جلدها بضًا أبيضاً شهياً أكثر من أي وقت مضى.

الخائنة.. المرتدة، الخائنة.. المرتدة .

كان العرق يتصبب من كُلِّ خلية في جسده، وهو يلهث ويردد كلماته بغضب وحنق عظيمين دون تأتأة، وبصوتٌ هادر لا حشرجة فيه أيقظ كلَّ من كان في الفيلا.

برزت رؤوس الرجال والنساء من الشرفات والنوافذ تستطلع الخبر، نزل بعضهم مسعوراً ككلاب الدوبرمان، يكاد يزلق في لعابه المتناثر

فوق البلاط، بينما ظلَّ آخرون يتلصصون على الحدث بحسرةٍ من أماكنهم .

تسمّرت عند المدخل ، وقد جفَّ حلقي تماماً، تقاطرت على ذاكرتي صور كلُّ المواقف الجميلة التي عشتها مع سميرة، كانت الشَّخص الوحيد الذي دخل قلبي دون استئذان، دون منّة، ودون أن تطلب المقابل:

لا أعرف لما أحببتك، أحببتك وكفى.

هكذا أجابت يوم سألتها: لماذا أحبت بائساً لا تاريخ له ولا مستقبل مثلي؟، كنتُ ألمس صدقها من نبرة صوتها الدَّافئ كشمس الرّبيع ، صوتها الذي يذيب ثلج قلبي، فيسري عشقها في تضاريس روحي رقراقاً صافياً كأنهار الجنّة، ألمس صدقها من لمسة أصابعها النّاعمة كنديف سحابة تحضن توقي وترفعني إلى السّماء السّابعة، ألمس صدقها من نظرة عينيها الصّافيتين كبحيرة تاهتْ عن سمائها الرّياح والغيوم والمطر، ورسمت على سطحها كلَّ أحلامي وسعادتي.

كانت سميرة قد انظمتْ إلى التنظيم منذ سنتين تقريباً ، هربت من تونس، بسبب ضيق الحياة فيها، وبسبب استمرار تحرش زملائها في الصّحيفة التي تعمل فيها بها، وبسبب أحلامها الكبيرة التي اكتشفت بِأنَّ الحياة الدَّنيا لا تتسع ولا تصلح لها، قررت أن تهب

نفسها إلى الله، تجاهد في سبيله على وعدٍ بأن تكون من أصحاب النعيم.

هكذا قالت وهي تقف أمام الأمير ورجال القيادة الذين كان خالي أحدهم، كُنت مع خالي، ولا أذكر لماذا كُنتُ هناك، ربما هو سعدي الذي جعلني ألتقي هذه التونسية وأفتن بها منذ النظرة الأولى.

كان قصر قامتها وملامح وجهها الدقيقة النّاعمة تعطيها عمراً أصغر من عمرها، كانت ساذجة الحركات أحيانا وكأنَّها تريد أن تؤكد بأنَّها أصغر من العمر الذي كُتب في بطاقة تعريفها ، ترتدي عباءة طويلة سوداء، ووشاحاً بنياً لا يحتمل الثبات فوق شعرها الحريري الناعم، فكان يسقط على كتفيها كلما تدفقت في الحديث عن نفسها، فيكشف عنقها الأبيض ، وأذنيها الصغيرتين المصبوغتين ببعض حمرة أثارها الحماس والتأثر فجعلتهما شهيتين مثل حلوى التفاح أو الفراولة.

بنظرة خاطفة من عينيها اللصّتين سرقت كلَّ كياني، لم أكن على علم – ولا هي كذلك – بأنَّها فعلت ذات الشيء بخالي أيضاً، فتقدم على الفور للأمير هامساً بشيء ـ فقال الأمير بابتسامة واسعة وهو يشير إليها:

بكل سرور، هي لك.

رأيت على الفور وجهها يتلبد حتّى كاد لسانها يعترض بالرفض، غير أنها سيطرت على نفسها بسرعة، وأرسلت إليّ نظرة عتاب، وكأنها تُحملني مسئولية تلك الخاتمة، ربما غير المتوقعة بالنسبة لها.

لم يكن بمقدوري فعل شيء، فأنا في نظر خالي ما أزال فتاً غراً لم يتعلم فنَّ الحياة بعد، ما زلتُ في نظره (دلوع) جده – كما يكرر عادة – ابن أبيه الساذج الذي كان يظنَّ بِأَنَّهُ يستطيع أن يُحكم قبضته على جميع البشر.

هكذا كان ينظر إليّ خالي، حتّى بعد أن اقترب عمري من العشرين، لا أزال أحتاج في تقديره دائماً إلى إعادة ضبط لأتخلص مما يراه هو معطوباً في تكويني، ويُجدد ما يراه صالحاً ومفيداً للاستخدام ، احتاج إلى (سوفت وير) يعيدني إلى يديه صفحة بيضاء يخطُّ عليها ما يريد.

كانت كل المواقف تثبت لي قبل أن تثب له بِأَنَّ نظرته إليّ صحيحة مئة بالمئة، وأن فكرته عنّي لا تحتاج إلى تعديل أو إعادة برمجة.

ألم أكن غِراً حين نظرت إليّ سميرة مستعطفة معاتبة، فكانت نُصرتي لها بأن طأطأت إلى الأرض وكأنَّها تحدثت بلغة صعبة الفهم؟ ربتَّ على قلبي المضطرب المعترض، أخبرته بأنَّها هي من اختارت طريقها، وعليها أن تتحمل وحدها النتائج، فانقلب حاسراً يبكي حُباً خديجاً، وليتني التزمت بتلك الحيادية، ليتني واصلت الهرب من ربيع

عينيها إلى مواقع الأحذية القذرة أمسحها ببصري، وألملعها بخوفي وجبني.

ذات النّظرة رأيتها في عينيها في ذلك الصّباح ، وهي متكومة تبكي وتلهث على بلاط الحديقة الخشن، هل سيعيد التّاريخ نفسه على حساب أنفاسي؟.

يا الله، كم هو صعب أن تتغلب على نفسك في المواقف الصّعبة، كم هو صعب أن تُمسك بقرار ظلَّ يحلِّق في سمائك طويلاً وبعيداً وأنت كسيح؟ ليس سهلاً على الإطلاق أن أنطلق فجأة إلى السّماء وقد كنتُ مقيداً في السلاسل وفي الظَّلام لعشرين عاماً، ليس سهلاً أبداً أن أخطو على الأرض المستوية خطوة واحدة متوازنة، وقد كنتُ محشوراً في قمم صغير لعقدين من الزمان، ليس سهلاً أن لا أكون أنا - في لحظة مُباغتة من لحظات القدر الرهيبة – سأظلُّ أنا هو أنا، ذات الأراجوز وذات الدَّمية المستسلمة للأصابع الماهرة منذ لحظة سقوطها إلى عالم البشر.

أخبرتك، أنه أخي، أخي...أقسم بِأَنَّهُ أخي.

كاذبة...خائنة...مرتدة.

كان خالي يهدر حولها هائجاً بكلماته، ويغسلها ببصاقه بين الفينة والأخرى، يدور حولها وهي متكومة فوق البلاط الخشن، كسيرة باكية،

تنزّ الدماء من وجهها وأجزاء من جسدها، بعكسي تماماً، كانت نظرتها المتحدية، وكلماتها الواثقة تشي بقوة قلبها وسلامته من النزً أو التأثر، لم يكن خالي يهمها - على أية حال - ولا في أي وقت - لم تشعر تجاهه بأي شعور سوى شعور التّحدي أو اللامبالاة، كانت تقول بأنَّها تنظر إليه كمغتصب، استطاع بقوة جيوشه أن يحتل مدينة، غير أنه لم ينجح أبداً في احتلال قلوب ساكنيها الذين لن يتوقفوا عن لدغه ولسعة كلما غلبه النّعاس وأغمض عينيه في غفوة.

كانت تتمادى في تجهيز سُمَّها، وتتوقع أن يهرب في النهّاية أو يعتقها أو في أسواء الأحوال يشنقها، فكل النّهايات حينها ستكون خلاصاً ، كانت تُسلم لنهمه جسدها حين ينير المصباح الأحمر في ذاكرته ويشير إلى غرفتها، أحياناً كانت تبكي، وأحياناً كانت تتسلى بقضم أظافرها حتّى ينتهي فتُسرع إلى حمامها تتقيأ دنسه، وتغتسل لساعات دون أن تشعر تماماً بالطهر.

احضروا لي حبلاً.

صاح خالي في بعض الرجال، فلم تمضِ ثانية إلا وبين يديه حبلٌ طويل، متين وخشن، حركه في يده لحظة وكأنه يُقدر وزنه، ثُمّ أضاف لنفس الرجال وهو يشير إلى أحد أعمدة الرخام التي تزين مدخل الفيلا:

اربطوها على هذا العمود.

ثُمّ وهو يقرب وجهها من فمه بعد أن جلس القرفصاء إلى جانبها:

لابد أن أقيم عليكِ الحدِّ...حدَّ الموت...وبطريقتي أنا.

لا يا خال، أرجوك.. الخطأ خطأي أنا.

لا أدري كيف قلتُ ما قلت؟ ولا كيف تحركت من مكان وقبضت بقوة على يديه التي ارتفعت في الهواء لتصفعها؟ غير أن ما أدريه أنني - ولأول مرّة في حياتي - قلت (لا) في وجه خالي، حتّى وإن كانت كلماتي المعترضة قد خرجت متعثرة، مرتعشة.

نظر إليّ خالي بعد أن أدار وجهه ناحيتي ببطء وكأن جسده قد أصابه الشلل، ضيق عينيه وسأل وهو يعقد حاجبيه:

ماذا قلت؟

قلت ـــ.

قاطعني هامساً، وهو يضغط على أسنانه غضباً ممزوجاً بسخرية:

إذا كنت تقصد نومها في حضنك؟ فذاك ليس بخيانة.

ثُمّ ربت على خدي بقوة وكأنه يرغب في إيقاظي من غيبوبة، وهو يقرأ مسروراً الفزع والخجل المتجمهر في عينيّ، وقال:

أنتَ ابن أختي، وما تزال صغيراً، وإن طلبتها لمنحتك إياها، لم تكن تعني لي شيئاً تلك العاهرة، هي مجرد سبية.. ملك يمين، وملكي وملكك واحد يا ابن أختي.. أليس كذلك؟.

دفعني برفق إلى الخلف، فسقطت على قفاي، جلست مشلولاً عاجزاً حتّى عن الكلام، أنظر إليه وهو ينهض من مكانه، مشدداً على بقية الرجال بأن ينفذوا ما طلب، قائلاً بهدوء ما كان يملكه منذ لحظات:

هذه الخائنة جاسوسة للعلمانيين، لقد سمعتها تهاتف أحدهم، وتخبره عن مكاننا وخططنا.

أخبرتك بِأَنَّهُ أخي، أخي.. أقسم بالله بِأَنَّهُ أخي.

لم يستمع إلى قسمها، تابع:

والخونة والمرتدون، ما جزائهم؟

فردد البقية مبتهجين:

الموت...الموت.

ومثل رجال القبائل المتوحشة، راحوا يدورون حولها وهم يرفعون في أيديهم بنادقهم وأسلحتهم البيضاء في الهواء، ويرفعون عقائرهم بالتكبير، كان كل واحد منهم يرغب بقوة أن ينال بذبحها درجة في الجنّة، وبدأوا في المزايدة، فأصدر خالي حكمه:

سيشترك الجميع، لن نستثني أحداً من هذا الشرف.

أدار عينيه إليّ، واشار إليّ مبتسماً وقال:

و أنتَ أيضاً.

أدركت فجأة ماذا سيفعل خالي، سيَحضر شفرة حلاقة جديدة، ويبدأ في تقطيع أطرافها عند المفاصل، جزءاً جزءاً وهي حية، فقد كانت تلك هي وسيلته لإعدام الكثير من الأسرى الذين وقعوا في يده، آخرهم كان جندياً من الجيش العراقي، قيده على كرسي، ثُمّ راح يفصل يده اليمنى عند مفصل التقائها بالكتف، ثُمّ اليسرى، ثُمّ أخذ اليدين بين يديه وراح يصفق بهما أمام وجه الجندي الأسير، واستمر في تقطيع المفاصل حتّى أغمي على الجندي، ومات نزفاً.

داهمت عقلي فكرة مجنونة، سأقف وانتشل سميرة، أقودها من يدها، ونخرج من هذا المكان، بالتأكيد فإن البنادق المتربصة لن تترك لنا فرصة للنجاة، غير أن الموت بتلك الطريقة سيكون أفضل لي ولها، بادرت إلى تنفيذ فكرتي، غير أن جسدي لم يستجب لي، كنتُ مُسمراً في

مكاني، عاجزاً حتّى عن النّطق، وكأن الوصلات العصبية العائدة بأوامر المُخِّ إلى الأطراف والخلايا قد تعرضت لعملية تخريبية، وأصابها العطل.

كان عقلي حاضراً تماماً، تعينه عيناي الذاهلتان على تتبع المشهد، فرأيت خالي يخرج بالفعل شفرة حلاقة، اقترب بها بعد أن نزع غلافها من سميرة التي ربطها الرجال واقفة إلى العمود الرخامي، يديها إلى الخلف وقد سقط شعرها الناعم الأسود على وجهها وغطى جانبيه، أخذ خالي الشفرة، ضرب بها - كما سيف – فوق ثياب سميرة عن صدرها بشكل طولي، لمست الشفرة أولاً ذقنها وجرحته فسال دمها ، تمزق ثوبها واهتز نهداها الممتلئان كتفاحتين ناضجتين على شجرة يانعة، طالت الشفرة أيضاً جلدها ورسمت خدشاً، كان منظرها وهي مكشوفة الصدر مغرياً ومخجلاً، مستفزاً ومقرفاً، مدهشاً ومحزناً في ذات الوقت.

تناول خالي نهدها الأيمن، وبضربات قليلة من شفرته أصبح حراً في كفه ، ابتعد به يقفز راقصاً مزهواً ، وهو يقهقه عالياً وسط صيحات الاستحسان والتهليل والتكبير، بينما صرخت هي صرخة مرعبة هزّت الملائكة في سمائها، صرخةٌ مدَّت جسوراً فوق وصلاتي العصبية المعطوبة، وقفزت واقفاً، نزعت أول بندقية وقعت عليها عيناي، وافرغت مخزنها في صدر سميرة.

أطبق صمتٌ تبلله الدهشة على المكان، وحدها نظرتها التي ارسلتها إليّ قبل أن تصعد روحها إلى الأعلى، وابتسامتها التي رسمتها على وجهها ظلتا تصرخان في حياتي إلى الأبد.

(19)

كطفلٍ فقد أمه قضيتُ الأيام والليالي التّالية في بكاء متواصل، طفلٌ يشعر بِأَنَّهُ عبءٌ حقيقي على هذا العالم، وبأنه ما كان منذ لحظة ميلاده إلا لوثةً تزيد من قبح الحياة ؛ التزمتُ غرفتي وأضربتُ عن الأكل والشرب والكلام، بينما راحت ذاكرتي تجترّ كل الصُور المُتعبة والتي هي كل حياتي، وتزيد بها ضرام روحي.

زارني أبو فارس، وقف عند الباب وكأنه يخشى من عدوى مرضية، قال بِأَنَّهُ يحمل أخباراً عن صديقيّ (علي) و(مرعي)، أثار اهتمامي ولهفتي وشوقي، غير أنني لم ألتفت إليه، ظللت مستلقياً في وضع جنيني ووجهي إلى الجدار، استمر في سرد أخباره من موقعه معترفاً بِأَنَّ مصدرها هو أخي محمود، قال بِأَنَّ كلاً من صديقي (علي) و(مرعي) قد أصبح قائداً لمجموعة مسلحة، وبأن مجموعتيهما هما من أقوى الجماعات المسلحة في البلاد، لكنهما – للآسف - في مواجهات مستمرة، وقتال بينهما لا ينتهي، لم يفرحني خبر نيلهما لأحلام القيادة بقدر ما زاد من حزني قتالهما المتواصل، إذا أردت الهرب إليهما الآن، فأي منهما سأختار؟ كلاهما كان صديقي الذي أحب، وكلاهما بات في مرحلة ما طوق نجاة أسعى للوصول إليه،

فكيف سأجمع بينمها وبيني وقد أصبح عمر الثأر طويلاً بينهما، وأنهار الدم بينهما في تدفق مستمر، ونيران الكراهية بينهما ستحرقني أيضاً معهما؟.

إن جوزيف يحاول أن يستميل كليهما الآن للانضمام إلينا.

قفزت في مكاني كمن لدغته عقرب، كان قد غيَر مكانه بسرعة وخفَّة ثعلب من الباب إلى النافذة، نظر إليّ بسخرية وسأل:

ماذا، هل ستظلُّ عمركَ تبكي خائنة؟...انهض يا رجل.. لا يلبث صديقاكَ بأن يكونا هنا، انهض فالحياة تستمر.

أغاظتني كلماته، وتمنيت أن أجد القوة والعزم لأغرس أظافري في حنجرته، واصل بذات البرود:

لا ينبغي أن نبكي على هذه الحياة الفانية، غداً ستجد في الجنَّة كل ما تتوق إليه نفسك وأكثر....

الجنَّة أو النار مكانان يستويان في القيمة حين أقارنهما بهذه الحياة، لا يهم إن كانت العاقبة ناراً أم جنة، المهم أن أي منهما سيكون مكاناً ليس فيه أبو فارس، ولا خالي، ولا جوزيف، ولا أبي، ولا أُمِّي ولا جدِّي ولا أي من البشر، مكان منعزل كصومعة راهب وسط الصحراء تاهت عنها دروب القوافل.

محمود أخبرني أيضاً بِأنَّ (زينب) زوجة جدكَ قد اختفت في طرابلس بعد أن استولت على كُلِّ الأموال الجارية التي تركها جدكَ، أما (نورية) والدته فقد هاجرت إلى مصر، وهو لا يدري عنها بعد ذلك شيئاً، أمّا حبيبة....

توقف قليلاً، تنهد، ثُمّ تابع بحرقة:

أمّا حبيبة - أختكَ - فقد تزوجت من شاب يصغرها في السنِّ، ويدير مدرسة للأطفال.

نظر إليّ طويلاً وكأنه يرغب في قراءة ردة فعلي، حرّك فكه السُفلي في قلق، ما لا يعرفه أبو فارس هو أنني لم أعد أملك ردَّات أفعال، تلك التي يصدرها الجهاز العصبي للإنسان كاستجابةٍ لمؤثر خارجي.

كانت - بالأساس- ردَّات أفعالي شحيحة تكادُ لا تصدر عنِّي، ونادرة نُدرة العشب في الأرض القاحلة، استنفذتها كلها في قتل سميرة وهي مصلوبة إلى عمود في الحديقة، وجلستُ في غرفتي مُفلساً من كل شيء حتّى من الأنفاس النقية.

نظرتُ إليه بذات البرود الذي يملكه، دُهشت من نفسي لأني أستطيع أن أكون مثله، ويمكن أن أتفوق عليه، عربد شيء في داخلي ونفخ أوداجه كديك حبش يستعرض أمام أنثاه، وفي الوقت ذاته

انكسر شيء آخر، شيء سقط وتهشم وانزوي في ركن روحي يبكي بمرارة أنثى تتعرض للاغتصاب.

هل محمود يملك لساناً يتحدث به؟ لا أذكر بأني رأيته يحرك فكيه إلا مضغاً لطعام، أو لقطعة علكة كان يحافظ عليها بين أسنانه على الدوام، لا أذكر بِأنَّ لمحمود ذاكرة أيضاً يحتفظ بها بصور الأشخاص الذين يمرّون في يومه، وإلا كان ليتذكرني، ليتذكر بِأنَّ له أخاً أصغر، أخٌ عاش حياة أقرب لليتم، وأبعد ما تكون عن حياة أدنى البشر.

كم هو سافل.

كان الأجدى أن تقول: كم هي سافلة.

لم أتوقع بأن يسمع همسي، لكنني توقعت ردَّة فعله، لابد أنه الآن يتخيل نفسه يمتطي جواداً قوياً سريعاً، ويمتشق سيفاً بتّاراً، يُداهم مكان عمل حبيبة، ويغتصبها أمام الملأ، تلك هي طريقته المُعتادة في الانتقام من الرجال والنساء على حدٍ سواء وإذلالهم وقهرهم.

إنَّه الآن قائد مغولي سافل يهتك عرض بغداد، لا يُقيم وزناً حتّى لأبناء بغداد السفلة الذين سلموها له.

مرّةٌ أخرى تمنيت بأن تكون لديّ ردَّةُ فعلٍ وانقضَّ على حنجرته، أين الشجاعة، وفي أي سوقٍ تُباع؟ تلك الشجاعة التي باغتتني حين

صلبوا سميرة، من أي فجوة تسربت إلى روحي ثُمّ تبخرت فجأة؟ من أي فوهة انفجرت ثُمّ خمدت فجأة وغادرت حيث لا استطيع إدراكها؟.

ليت البشر يعودون إلى عهد ما قبل الجاهلية، حيث لا قانون سوى قانون السيف، فإمّا أن تكون أو لا تكون، لن يكون هناك منطقة وسطى كتلك التي أحبسُ فيها الآن، لن أكون جباناً ضعيفاً تُقيدني عُقدي إلى الموضع الذي أقف فيه، سيكون حاكمي وطريق مجدي هو فقط سيفي، إذا أثارت حنجرة ما أعصابي واستفزتني فسأقطعها، وبقدر ما أقطع من حناجر بقدر ما أبني صرح هيبتي وملكي للقلوب.

الإرهاب هو الخطوة الأولى والأهم لأن تفرض كلمتكَ على الجميع، بقدر ما تكون مُخيفاً بقدر ما تُحترم أكثر، وبقدر ما تُسمع كلمتك وتُطاع، هذا ما أخبرنا به التّاريخ، وما يخبرنا به اليوم، وما يؤكد أبو فارس بِأَنَّهُ سيكون في المستقبل.

دخل جوزيف، وراح الاثنان يتهامسان عند النافذة وكأن المكان يخصهما لوحدهما ولا أحد فيه غيرهما، نهضت من مكاني بهدوء وتوجهت إلى الباب في خفَة وأنا أنوي الهروب منهما:

لحظة !.

صرخ جوزيف دون أن يلتفت إليّ وكأنه يملك عينين في مؤخرة رأسه، ثُمّ أضاف وهو يدير وجهه نحوي ويواجهني بعينيه الخضراوين:

هناك مهمة كان ينبغي أن ينفذها أبو فارس، لكننا رأينا أن تنال أنتَ شرف تنفيذها.

لا يا يوسف، تلك المهمة لي.

اعترض أبو فارس الذي أدار وجهه ناحيتي أيضاً، وهو يُسقط دمعتين لا أدري من أين نبعتا، ثُمّ أعاد وجهه إلى جهة النافذة وراح يهزّ كتفيه بشدة.

مهمةٌ خارج هذا المعتقل تعني لي الكثير، فرصة للهرب، فرصة للبحث عن الحياة، فرصة لأرغم الحياة على حُبي، سأعيش في مزرعة جدِّي وحدي، لن أبحث عن أحد، وسأسدَّ كلُّ الطرق إليّ بالمتاريس والعوائق ، سأزرع التفاح وأنام في ظِلّه وأطوقه بالمفخخات حتى لا يفكر أحدٌ في ازعاجي، ســـ..

بالمناسبة، لقد تنازل محمود عن المزرعة لخالكَ أبي البراء باعتبارها حقه، وتنازل عنها خالك للأمير باعتبارها حقٌ للدولة الإسلامية، سنُقيم هناك معسكراً لتدريب أشبال الجهاد.

علَّق جوزيف وكأنه كان يقرأ أفكاري، هدم كل المتاريس والسدود الترابية التي كنتُ أحمي بها روحي، سقطتُ في قرار لا نهاية له، كنتُ أهوي وأهوي وأهوي، يزداد الظَّلام حولي قتامة، ويتمادى الأمل في الهروب عنِّي، شريط حياتي يمرّ صوراً أمامي، منذ اللحظة التي وعيتُ فيها على هذه الحياة، صورٌ قاتمة تضرب رأسي ولا تتحطم، بل تُحطم أجزاءَ من جمجمتي، تقتل إحساسي، وتُسمِّمُ أوردتي، وتُذيب ملامحي حتّى لم يبق في رأسي سوى عينين دامعتين تنضحان باليأس، أغمضُهما فتتصاعد حولي رائحة المسك، وتحوطني أصوات همهمات وتكبير، أفتح عينيَ فيصطدم بصري بجميع الرفاق حولي، يرتدون السواد، ويعطرونني بالمسك، ابتسامات واسعة على وجوه خالي وجوزيف وأبي فارس، ولا مبالاة مستفزة وبلا حدود على وجه محمود، بينما وجوه الآخرين تختبئ خلف الأقنعة السوداء، سيارة مُدرعة ومحملة بأطنان الحديد التي لابد بِأنَّ تحتها أطنان من القنابل أمامي مباشرة، وأجهزة وأسلاك تحوط جسدي كله:

هذا هو الزرّ الذي ستصعد به إلى الجنَّة.

كان أحدهم يردد في سمعي وهو يُرغم إبهامي على تحسس زرً أرشقه في سترتي، نظرت إلى الزرّ كان أكبر من مساحة إبهامي، وأكثر قتامة من لون دمي، ودائرياً لا بداية له ولا نهاية مثل آلامي، وأصغر بكثير من أن يكون درجة إلى الجنَّة.

حالما تقترب من بوابة المعسكر ستضغطُ عليه..

أي معسكر يقصدون؟ هل هو المعسكر الذي يرأس جماعته (علي) أم معسكر (مرعي)؟ أم المعسكر الذي كان ينتمي إليه أبي؟ أم المعسكر الذي طُرد منه (محمود)؟ أم المعسكر الذي تنتمي إليه حبيبة، أم ماذا؟.

سيقود يوسف سيارة أخرى أمامكَ وحين تصل إلى هدفك سوف يمنحكَ الإشارة لتصعد إلى أملنا وأملكَ .

هل سيتقدمني جوزيف حتّى وأنا أهرب منه؟ لماذا لا يصفون لي المكان دون أن يجعلوا جوزيف في مرمى بصري في آخر لحظة أودع فيها هذا العالم القاتم؟ أتراهم يخشون تقاعسي ويتوقعون هروبي؟ أعرف بأنهم لا يعتمدون أبداً على هذا الزرّ الدائري الأحمر العريض تحت إبهامي، لطالما كان في أيديهم وعلى البعد زرّ آخر يضمن نجاح العملية، يضغطون عليه بأنفسهم حالما يشعرون بخلل ما، كأن تعترض منفذ العملية موجة جبنٍ، أو يحدث عطل طارئ في منظومة التفجير.

كدُمية تسير بجهاز تحكم، تحركت من مكاني مطيعاً أمرهم، ركبت السيارة المفخخة وسط التكبير وعبارات التمني والوداع، أدرت مفتاح التشغيل، وكما كان مخططاً له سرتُ خلف سيارة جوزيف أسير حيثما سار، وأنعطف حيثما ينعطف، وأتوقف حيثما يقف.

كانت ابتسامة جوزيف المنعكسة على المرآة الأمامية لسيارته تقرض غيابي وتحيله إلى فتات، كانت ابتسامة مُنتصرٍ يسوق عدوه إلى المحرقة، شيءَ في أعماقي يصرخ بالرفض، وأشياء تصرخ بالاستمرار، وإبهامي فوق الزرِّ الأحمر ثابت يُدغدغ أمنيات الخلاص.

نظرت أمامي بانتباه أكثر، ورأيتهم أمامي يتجمهرون، يظهرون الواحد تلو الآخر: أُمِّي وأبي، جدِّي، وزوجته (زينب)، (نورية) زوجة أبي وأخي (محمود)، أصدقائي (علي) و(مرعي)، معلماتي ومعلمي، مدير مدرستي، أصدقائي في (الصّابري)، جيراني، خالي (أنور)، خالتي فتحية، جوزيف، أبو فارس، سميرة، ومنال، كلهم كانوا يحملون في أيديهم المشاعل ويحرقون كل ما تدوسه أقدامهم.

كانوا يقتربون ويقتربون، وكنتُ أبتعد، كان قلبي يناديهم وهو يركض منهم، يتوسلهم بأن يعانقوه بالماء والثلج والبرد ، لكنهم رفضوا، جميعهم رفض بأن يكون معي، كشروا وجوههم واتهموني بالعقوق، أداروا لي ظهورهم بعد أن بصقوا على أحلامي، تصاعد ضرام الفقد في روحي حتّى أحرق كل صورهم، شعرت بالوحدة تحاصرني، تُطبق على أنفاسي، مشاعل نيرانهم تحاصرني.....لا يُخمد النار سوى النار، نظرتُ إلى الزرِّ الدائري الكبير الأحمر تحت إبهامي، راودتني رغبة شديد وصادقة بأن أنحشر وسطهم جميعاً وأضغط عليه، ابتسمت لرغبتي

وإرادتي الحُرّة، ابتهجت لقدرتي على اتخاذ القرار أخيراً، وتدريجياً اقتربت منهم.

كان مكتوباً على اللافتة التي تتقدم المكان الذي رأيتهم فيه (معسكر قوات الصاعقة)، لم أعباء للسؤال الذي ثار في نفسي: ما علاقة هؤلاء بهؤلاء؟ دخلت بسيارتي بسرعة جنونية، حتّى إذا ما صرت وسطهم، تحسستُ الزر الأحمر، وبهدوء لذيذ أردتُ أن أضغط عليه، غير أن طيف (حبيبة) لاح أمام عيناي، عجبتُ إذ رأيتها قد تخلت عن عباءتها السوداء، وارتدتْ فستاناً أ بيضاً مزيناً بأزهارٍ صغيرة حمراء، كانت عيناها ناضحتان بالألم والخوف والندم، وكانت تناديني، تهمس باسمي، كنتُ أقرأه على شفتيها وإن لم يصل مسامعي رنين حروفه، ثم تقدمت مِنِّي، فتحت باب السيارة التي استقلها، وجذبتني خارجها بقوة، تدحرجت على الاسفلت الخشن، وقبل أن يصطدم رأسي بالرصيف، رأيت سيارتي تندفع إلى وجهتها، ثم تصطدم بالبوابة، وتنفجر بدوي هائل.

بعدها فقدت الوعي، ولا أدري هل كان ذاك بسبب اصطدام رأسي بحافة الرصيف، أم بسبب الشظايا التي غزت جسدي كسهام حربٍ اسطورية؟.

(20)

صوتُ الأذان يدعو لصلاة الفجر يتردد في أرجاء الشقة الساكنة، برغم كل النوافذ المغلقة، صوت زوجها وهو يقوم للصلاة مُبسملاً وحامداً ومستغفراً يصل إلى مسامعها واضحاً أكثر من أي وقت، صوت أبواب تُفتح، وأخرى تُغلق، ظلَّت ساهمة تحدق في باب الغرفة المغلق بذهول، بينما كان الحاسوب يعيد فتح التسجيل آلياً.

كانت طوال وقت استماعها تقضم أضافرها بعصبية طفل خائف، وتستدرّ دمعاً جفَّ في حدقتيها بجزع أمٍّ كلوم.

نظرت إلى ساعة كانت معلقة على الحائط المقابل، وكأنها لا تصدق أن الصباح قد أتى ، مدت أصابعاً مُنهكة وكتمت صوت التسجيل، ثم التقطت هاتفها النقَّال وطلبت رقماً.

طنين ضربات الهاتف المتواتر يؤجج توترها، ويسحبها بكل بروده إلى هوّة سحيقة مظلمة، وحين سمعت صوت السماعة على الطرف الآخر تُفتح، قفزت إلى السماء السابعة، وردت بنبرة غريق عثر على قشَّة:

عمّ نجيب؟

نعم، حبيبة...صباح الخير... كيف حالكِ يا ابنتي؟

غرقت في الصمت، وكأن القشَّة التي تعلقت بها لم تعد تحتمل ثقل توترها، وحزنها، وارتباكها، غاب صوتها طويلاً، ولولا صوت أنفاسها الذي ظل يتردد خائفاً مضطرباً إلى مسامع عمِّ نجيب، لظنَّ أنها قد اسقطت سماعة الهاتف وغادرت الخط.

نعم حبيبة، هل أنتِ بخير؟

ثارت العبرات واحتلت منابع صوتها، فأصدرت شهقات متتابعة.

حبيبة! ما بكِ يا ابنتي؟ هل فتحي بخير؟

الصقت الهاتف بأذنيها أكثر وكأنها تخشى فقد المكالمة، دون أن تتمكن من نطق كلمة أخرى تستطيع بها أن تحتفظ بتواصل العمِّ نجيب معها.

هل استمعتِ إلى التسجيل؟.

سأل بعد فترة صمتٍ وتردد، وحين ارتفعت نبرة صوتها بالبكاء، قال:

لا بأس يا ابنتي.....هل ترغبين برؤيته؟

هل هو بخير؟.

سألت وهي تمسح دموعها والمخاط السائل من أنفها بظهر يدها، فردَّ بعد أن تنهد بعمق:

أتمنى ذلك، كان موجوداً بالمستشفى يوم أجرينا ذاك التحقيق معه، سألت عنه بالأمس فقيل لي بأن حالته خطرة وحرجة، و.....

سكت قليلاً وهو يستمع إلى نشيجها، لمست روحه مسيرة عذاباتها التي عاشتها قبل وبعد اليوم الذي قررت فيه والدتها الهجرة إلى مصر بعد ثورة 17 فبراير، وتركت لها والدها الذي أقعدته جلطة دماغية على كرسي متحرك، تابع بألم:

كان يمكن أن يصبح فُ تاتاً لو لم يقذف نفسه من السيارة،... الأوغاد الذين أرسلوه كانوا حرصين على أن يتم التفجير بأي شكل، وربما كانوا يتوقعون أن يتراجع عن تنفيذ العملية، فحرصوا على أن يكون بين أيديهم جهاز تحكم بالتفجير آخر حتّى يفجروا السيارة متى أرادوا، وهذا ما فعلوه...الجبناء.

إذن لماذا لم ينجو تماماً؟

الشظايا... الشظايا اللعينة...كان الانفجار هائلاً بحيث طال زياد وهو ملقى على الرصيف على بعد ثمانين متراً تقريباً.

هل سيعيش؟

أتمنى ذلك يا ابنتي.. أتمنى ذلك.

كانت الصداقة التي ربطت العقيد نجيب بوالدها قد حتّمت عليه ملازمة حبيبة، ومحاولة العناية بها، وتقديم المساعدة لها ما أمكن، وعاملها مثل ابنة له، كان رؤوفاً بها لدرجة أنه خبأ عنها اسم الإرهابي الذي خطف والدها من بيته في غيابها، وقطع رأسه.

كان يدرك أن كل تلك الصور كانت تمرّ بذاكرتها في تلك اللحظة التي كانت تحدثه فيها، ثم تنهد وقال:

(ربنا يستر)

في أي مستشفى؟

بالكاد استطاعت أن تقطف كلمات السؤال، فقال العمّ نجيب بسرعة من وجد مخرجاً لورطة:

سأمرّ عليكِ عند الثامنة، وأرافقكِ إلى هناك.

أغلقت هاتفها، ثم نهضت بسرعة واتجهت نحو الباب دون أن تُغلق الحاسوب، وهي تنادي:

فتحي،.. فتحي!...

القى فتحي السلام، ثم نهض من على السجادة يكاد يشله الرعب:

ما بكِ يا حبيبة؟ ماذا حدث؟

سأل وهو يتأمل ملامح وجهها التي انهكها الرعب والسهر والدموع، نظرت إليه طويلاً نظرة اعتذار وامتنان ورجاء، ثم انهارت على أقرب وبدأت تحكي له كل شيء وكأنها على كرسي الاعتراف.

سردت له حكاية أخيها زياد مذ كان قطعة لحم حمراء صوّرت لها على أنها جرثومة خطرة، دخيل لص، كانت والدتها تردد طوال الوقت بأنَّه (فرخ حرام)، ابنٌ من أبناء إبليس، وباءَ سيَخرب كل الأرواح الطاهرة:

أتراه كان كذلك فعلاً؟

تردد السؤال في نفسها، توقفت قليلاً، حلَّقت روحها إلى الصابري، اصطفت صور زياد في طفولته أمام عينيها، ثم ما لبثت أن تحولت إلى سياط حامية تجلد روحها بقسوة، فرّت من عينها دمعة سلبت دهشة فتحي الذي ظل يحدق في الدمعة للحظات ويتابع انحدارها فوق خد زوجاته حتى وصلت إلى أسفل ذقنها وظلت معلقة هناك للحظة قبل أن تسقط في حجرها وتتناثر.

هل تبكين؟

سأل وكأنه لم يُصدق دمعتها، فكان سؤاله بمثابة الحجر الذي حرّك البركة الراكدة، تلبدت صفحة وجهها بغضبٍ غامض وغرق في الدموع، وقفت وهي تنظر في شتى الجهات بشكل سريع، وكأنها لبوة محاصرة تبحث عن فجوة للهروب، فسارع إلى مسك يدها، ثم قال بحنان بالغ:

لابأس، لا أحد يستطيع تغيير قدره.

تنهدت وهي تفكر في كلماته، نظرت إليه وقد صفا وجهها قليلاً، عادت إلى الجلوس، ثم قالت بصعوبة:

أتراه كان قدره، أم...

لا عليك، ما حدث قد حدث، المهم الآن أن يكون بخير، وسيصلح الله كل شيء.

ونعم بالله.

تشبثت بالطوف الذي رمت به إليها كلماته، أشاحت بذاكرتها عن الماضي، نظرت إلى الغد، رأته مساحة واسعة خاوية محيِّرة، مثل لوحة أمام رسّام، أي الخوط يخطُّ فوقها، وأي الألوان سيستعمل؟.

تأخر العمّ نجيب!.

لحظات الانتظار في برك الألم تمر على الروح وكأنها مثبتةٌ فوق ظهر حلزون، أخيراً رنَّ هاتفها، صوت العم نجيب يخبرها بأنه في الشارع، ويأمرها بأن تلحق به مع فتحي.

ارتدت ملابس الخروج بسرعة، واندفعت نحو الباب الخارجي.

كلمة واحدة كانت تتردد على لسانها طوال الوقت: " أسرع".

قالتها له أكثر من خمسين مرّة، وهو يلتقط مفاتيح السيارة، وهو يفتح باب الشقة أمامها ويغلقه خلفهما، وهو يصعد إلى السيارة وأثناء قيادته في الشوارع، وهما يترجلان منها أمام المستشفى، وهما يصعدان الدرج إلى الطابق الثاني حيث يوجد زياد.

طوال الوقت كانت تتردد في ذاكرتها قرارها الذي اتخذته للغد أثناء جلوسها في مكتبها:

" في جِ لسة الغد سوف أصوَت لهذا القانون، ولهذه المادة بالذات، بل سأحرَض جميع الأعضاء الآخرين على الموافقة بالإجماع، وسأعمل على زيادة مدَّة العقاب إلى أقصى حدٍّ."

زياد؟

سأل العم نجيب وهو يقترب من الجسد الممد على السرير الطبي، والملفوف كمومياء في الشاش الأبيض، كانت مومياء ناقصة، كأن

لصوص الآثار قد اعتدوا عليها وسرقوا الطرف العلوي الأيمن منها، والقدم اليمنى وجزء من الساق، وربما العينين أيضاً؛ لأنهما كانتا مطمورتان تماماً تحت البياض.

ازداد خفقان قلبها وهي تنظر إلى موضع القلب، كانت تأمل أن ترى آثار تنفس في ارتفاع الصدر وهبوطه، غير أن السكون كان يثير القلق والرعب في نفوس الزوّار الثلاثة، خاصة هي، برغم أن طنين جهاز مراقبة القلب ما يزال يتتبع آثار نبض غامض.

جلست على حافة السرير، تأملت الجسد المُسجى، لقد كبر كثيراً ذاك الطفل الذي أفلت يدها يوماً في ممرات المدرسة، وأسرع إلى حضن أمه، وتركها وسط أمواج الحيرة والخوف، كبر الطفل الذي قرع باب قلبها يوماً، ولمس داخله صندوق أمانيها السري، مثيراً زوابع الحنين إلى أمومة، كبر الطفل الذي لم تعرف كيف تعتقله في بساتين روحها العطشى ، كبر وأصبح رجلاً بطول متر ونصف تقريباً.

تُرى كيف هي ملامحه؟ هل تغير شكلها؟ هل أصبح أجمل؟ أم أن فورة المراهقة والغربة والتعب والسخط على الحياة قد رسمت ملامح أخرى على صفحة وجهه؟.

فردتْ أصابع يدها في الهواء نحو وجهه، ثم ما لبثت أن قبضتها مرة أخرى وطمرها في حجرها، وكأنها تستعد لتوجيه لكمة قاضية،

لكمة لم تكن ترى في تلك اللحظة أن أحداً قد يستحقها أكثر من القلب الذي تحمله بين جوانحها.

يجب أن نخرج.

قال العمّ نجيب، ثم التقط يدها، وقادها نحو الخارج.

شوارع المدينة قد بدأت تصحو، وتنتظم فيها حركة المرور، الأطفال يتوافدون إلى المدارس جماعات وأفراداً، والكبار يتوجهون نحو أماكن عملها رجالاً ونساء، وضوء الشمس الدافئ يرسم على الجدار ظلالاً ناعمة.

روضة الزهور.

قالت وهي تضع يدها على مقود السيارة، وكأنها داخل عربة أجرة وتفصح عن وجهتها إلى السائق.

نظر إليها فتحي بحيرة، الاسم الذي نطقت به هو اسم الروضة التي أسسها منذ سنوات، ويعمل فيها مع عدد من المتعاونين والمتعاونات، فتابعت مُفسرة:

لن أذهب إلى البيت، ولا إلى البرلمان، ولا إلى أي مكان آخر غير روضة الزهور.

أنتِ مُتعبة وـــــ

صدقني، لم أعد كذلك، سأكون مُتعبة بالفعل إن لم تحقق لي أمنيتي.

وبعدها ستذهبين إلى البرلمان، لا تنسي، لديك جلسة مهمة اليوم.

لم أنس، لكنني لن أعود إلى هناك.

جلوسي هناك خطأ، خطأ كبير.. مكاني مع الأطفال، معك.. في روضة ال زهور.